من
أسرار عظمة القرآن

مـــن
أسرار عظمة القرآن

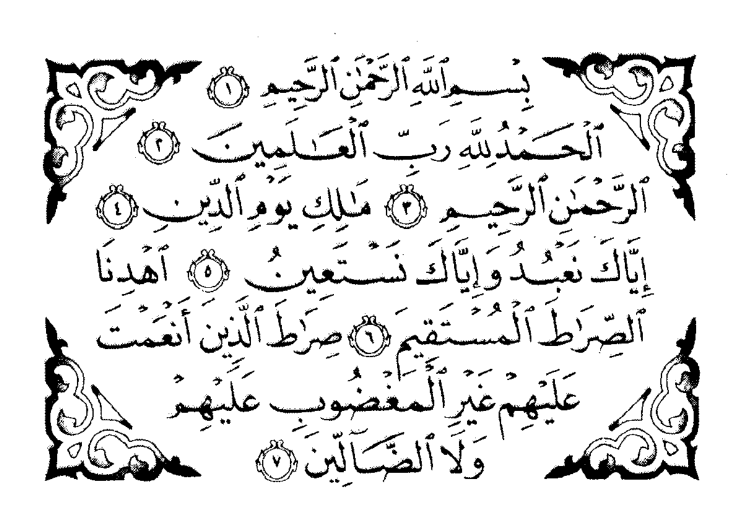
بقلم

المغفور له فضيلة الشيخ

محمد محمد المدنى

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ١

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢

الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ٧

المحتويات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

(صدق الله العظيم)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، نحمده تعالى ونشكره على سابغ نعمته وجزيل فضله ، ونسأله أن يتولانا فيما نستقبل من أمرنا بما تولانا به فيما مضى من هداية وتوفيق وعون ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أمـا بعـد ؛

فهذه فصول متتابعة إن شاء الله تعالى، لبحث جديد يعتمد على مصدرى الإسلام المباركين : كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكنه مع ذلك ليس بحثاً فى التفسير، ولا فى الحديث، ولا فى الفقه، ولا فى غير ذلك من الأسماء التى صارت أعلاماً لبحوث خاصة معروفة بين أهل العلم، وإنما هو لون جديد من البحوث، أساسه بيان ما للقرآن والسنة المطهرة من أصالة ورسوخ قدم فى شئون الحياة الانسانية، مادية كانت أو معنوية، وأنهما نبعان فياضان بكل ما يصلح عليه البشرمن علم وعمل ومبادئ وأخلاق، وبكل ما يهدى إلى سنن الاجتماع، وعبر التاريخ، والعوامل النفسية للأمم والأفراد، مما له أثر بالغ فى حياة البشر، ومعونة قوية لمن كانوا فى مراكز التوجيه والقيادة والتربية.

أصحاب هذه المراكز التوجيهية فى حاجة قصوى إلى دراسة العوامل

النفسية التى تحرك كلا من الفرد والجماعة فى هذا الاتجاه أو ذاك، ولم يعد مما يستقيم عليه الأمر فى هذا الشأن أن يقتصر أصحابه على مواهبهم فى الذكاء والألمعية، ولا على غزارتهم العلمية فى تحصيل الأحكام والمسائل، وتوجيه الآراء والأقوال، ولا على براعتهم فى الحديث إلى الأفراد والجماعات، فإن ذلك من غير شك هو بعض الأدوات التى لابد منها، ولكنه ليس كلها، وليس أيضاً أهمها، فقد يتحقق النجاح لقائد أو موجه متوسط العلم، محدود المواهب فى هذه النواحى، ولكنه خبير بالنفوس، ذو ملكة قوية فى إدراك البواعث التى تبعث على شئ، والصوارف التى تصرف عن شئ، فيتهيأ له بذلك أن يتصرف فى قليل العلم فيبدو كثيراً أو يفيد كثيراً، وأن ينتفع بأدنى المواهب، فيصل ما شاء، ويقطع ما شاء، ويبلغ – وهو المتوسط ذكاء وعلماً وقدرة – ما لايبلغه الذين يفوقونه .

إلى هذا الجانب وما يشبهه تتجه دراستنا فى هذه الفصول القرآنية الحديثية، وهدفنا الأكبر منها هو أن نصل إلى تربية ملكة جديدة من ملكاتنا، تجعلنا قادرين على استقبال آيات القرآن الكريم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة، بروح الباحث الفاحص عن كل ما لها من دلالات علمية، ومن توجيهات عملية، ومن إيحاءات ومن إشارات إلى المبادئ والمثل والعبر، ولا نكتفى من القرآن والحديث بالكشف عن غريب الألفاظ ، أو عن مشكل التراكيب ، أو عن وجوه البلاغة والبيان ، أو عن مصادر الأحكام الفقهية ، أو الآراء الكلامية ، أو نحو ذلك مما هو قطعاً من مباحث الناظرين فيهما ، ومما له قطعاً أهميته فى تكوين رجل القرآن والحديث والفقه والكلام والبلاغة والبيان ، فإن هذا واد من أودية البحث ، وما نريده واد آخر .

من القضايا العلمية الإسلامية التى شغلت الناس قديماً وحديثاً قضية إعجاز القرآن.

وقد اختلفت فى ذلك وجوه النظر ، وألفت فيه شتى البحوث والكتب .وليس من سبيلنا فى هذه الدراسات أن نثبت قضية الإعجاز فى وجوه المتعصبين على القرآن ، ولا أن نجادل وجوه الإعجاز التى اختارها كل من المؤمنين به ، فلذلك مواضعه من الكتب القديمة والحديثة ، وهى كثيرة ميسورة .

والواقع أن الوجوه التى ذكرها العلماء فى بيان إعجاز القرآن كلها حق :

فالذين يرجعون الإعجاز إلى القوة البيانية ، والصولة البلاغية التى أذعن لها العرب فى عنفوان مجدهم الأدبى البيانى ، لهم وجهتهم فى ذلك ، ولنا معاشر المتأخرين أن نأخذ من عجز العرب وهم يسمعون التحدى ، ويطول عليهم الأمد فى شأنه ، دون أن يأتوا ولو بسورة قصيرة من مثله – لنا أن نأخذ من هذا أنه بيان فوق مستوى البيان البشرى ، وأنه لذلك لابد أن يكون من عند الله .

والذين يرجعون الإعجاز إلى ماجاء فى القرآن الكريم من الإخبار بالأنباء الماضية التى انطمست ولم يبق لها أثر ، أو بالأنباء المستقبلة التى لم يكن هناك مايدل على وقوعها ، هم كذلك على حق ، فإن القرآن الكريم قد قص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ، وأتى بأحسن القصص عن الأنبياء السابقين وأممهم ، وأخبر عن أمور ستكون فكانت كما أخبر ، وهذا يدل أيضاً على أنه ليس من كلام البشر ، وإنما هو من لدن حكيم عليم .

حتى الذين يقولون أن إعجاز القرآن إنما كان بالصرفة ، فهم معترفون بمبدأ الإعجاز ، ولكنهم يتصورون هذا لوضوح القرآن وسهولته ويسر بيانه وموافقته للفطر السليمة ، والعقول المستقيمة فى كل ماجاء به ، فكأنهم رأوه كتاباً يعبر عما فى النفوس ، وينطق بالحقائق فى أجلى بيان ، ولما رأوا أن الناس مع ذلك – أى مع كونه كتاباً موافقاً لفطرهم ، مصوغاً بمثل لغتهم وتعبيرهم – عاجزون عن الإتيان بمثله ، ظنوا أنهم صرفوا عنه بقوة الله ، وربما ظن بعضهم أنه انصراف الدهشة لقوة القرآن مع يسره ، كما يقف الكاتب حائراً مسلوباً أمام ما نسميه « بالسهل الممتنع » فسهولته تغرى به ، وعظمته تدهش فتصرف عن تقليده ، ومهما يكن من شىء فإن هؤلاء القائلين

بأن الإعجاز إنما هو بالصرف أو بالصرفة مقرون بمبدأ الإعجاز ، ومؤمنون بأن هذا فى مقام التحدى كاف فى إثبات أن القرآن العزيز إنما هو من عند الله وما هو بقول بشر ، بدليل أن البشر لم يستطيعوا لأمر ما أن يأتوا بسورة من مثله .

وهناك من يقول إن القرآن روح من عند الله ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ - وقد يحمل على هذا أيضاً الروح فى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ بدليل أن الكلام قبل هذه الآية وبعدها عن القرآن الكريم الذى أوحى الله به إلى محمد ، فقبل هذه الآية يقول الله عز وجل : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ ، وبعدها يقول الله عز وجل : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ، إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا ، قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾[1] .

---

(١) اقرأ الآيات من ٨٢ إلى ٨٩ من سورة الإسراء .

ويؤيد ذلك أيضا على قوله تعالى : ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار﴾ [١] .

فهذا كله يمكن أن يتخذ دليلاً على أن القرآن روح من أمر الله ، فروحانيته هذه هي سر إعجازه عند القائل بهذا الرأى ، «فهى تنفذ إلى سر سريرة الإنسان وسويداء ضميره ، وتستولى منها على أصل حياته ، ومهب عواطفه وإحساساته ، وتخلقه خلقاً جديداً ، وتصوره بصورة لا يتخيلها ، ولو قيلت له لما أدركها» [٢] .

وهذا الرأى في إعجاز القرآن يمكن أيضاً تقبله ، فإن للقرآن قوة خارقة ، وسلطاناً قوياً على النفوس ، يدركهما من سمعه أو قرأه متأملاً وكان له قلب سليم : ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [٣] .

وقد يناقش هذا الرأى في بعض جوانبه أو عناصر الاستدلال

---

(١) الآية ١٥ من سورة الشورى .

(٢) الرأى للمرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى ذكره فى دائرة معارفه ص ٦٧٨ من المجلد السابع – مادة «قرأ» ، وقد توسعنا فى ذكر شواهده من القرآن الكريم .

(٣) الآية ٣٧ من سورة ق .

عليـه ، ولكن سحر القرآن وقوته ليسا موضع شك عن أحد من أصحاب العلم والذوق ، وليسا فى مستوى بشرى معهود ، ومن هنا يصلح ذلك كدليل أو مظهر من مظاهر إعجازه ، وأنه كتاب إلهى لا كتاب بشرى .

* * *

كل هذه الآراء يمكن أن توجه ، وأن تقبل كعناصر تتكون منها الحقيقة الكاملة فى سر إعجاز القرآن الكريم .

ولكن هناك أمراً هاماً نرى أنه أحق بأن يبرز فى مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، وأن يعطى حقه من العناية : ذلك هو ما جاء به القرآن الكريم من المبادىء والشرائع والقصص واستخلاص العبر ، والإرشاد إلى سنن الكون ، والتوجيه إلى دراسة الأشياء ، والإفادة من خواصها وما لها من دلالات ، ونحو ذلك .

إن هذا هو صلب القرآن الكريم وعموده ، إن البلاغة تسحر ، والبيان يطرب ، ولكن الحقائق والمثل والتوجيهات والعبر والثبات والرسوخ أمام الأحداث والتطورات العقلية ، والأفكار المختلفة على تقلب الأجيال والأزمان والعقول ، كل ذلك أكبر سحراً ، وأعظم أثراً ، وأفعل فى نفوس الناس .

إن معجزة موسى كانت من جنس ما برع فيه قومه ، فأبطلت العصا ما كان من سحر ، وانتهى أمر هذه المعجزة فصارت تاريخاً يروى ، وقل مثل ذلك فى معجزة عيسى التى كانت تلائم البراعة فى الطب ، ولكن معجزة محمد قد تضمنت تحدى العرب فى ميدانهم الأول حقا ، وهو البيان والبلاغة وقوة التعبير بيد أن الرسالة القرآنية لم تقف عند هذا الحد من الإعجاز ، ولم ينته دور القرآن كما انتهى دور العصا أو إحياء الموتى ، أو شفاء الأكمه والأبرص ، فتصبح قضية تاريخية لا يعلمها الحاضرون إلا عن طريق الرواية والسماع ، فالقرآن قد كتب له الخلود ، فيجب فى حقه أن يكون خلوده راجعا إلى أمر خالد على الأزمان يشهده الآخرون كما شهده الأولون ، وتزيده القرون التى تتوالى وضوحا وانكشافا ، وهذا لا يكفى فيه أن يكون القرآن ذا أسلوب فذ فى البيان ، ولا أن يتضمن بعض أخبار عن الماضين أو الآتين ، ولا أن يكون روحا يدرك تأثيره وسحره ، دون أن يعرف سبب ذلك وسره ، ولا أن يعرف أن الله صرف الأولين والآخرين عن الإتيان بمثله .

إن المعنى الذى يتفق وبقاء القرآن معجزة على الزمان ، ويجعله آية خالدة يشترك فى إدراك إعجازها بنو الإنسان فى كل زمان ومكان هو موضوعات القرآن نفسها ، وماتضمنه من حقائق فى كل ناحية لم

يستطع العلم ولا العقل ولا الواقع أن يلحق بها عابا ، أو يفتح عليها من النقد السليم بابا .

إننا نجد القرآن الكريم قد عرض لكثير من الموضوعات المختلفة ، بين حقائق يذكرها عن الإلهيات والنبوات ، وبين أصول للأحكام والتشريعات ، وبين تقرير للسنن والسياسات والتوجيهات ، وقصص السابقين ، وعبر التاريخ ، وما فى العالم من كواكب ونبات وبحار ومخلوقات بعضها معلوم للناس ، وبعضها غير معلوم لأنه غير مرئى ، وماوراء هذا العالم من حقائق أخرى ستكون أو هى كائنة معدة لوقتها .

إلى غير ذلك من الموضوعات الكثيرة التى عرض لها القرآن ، وتحدث عنها فى دقة عجيبة ، يكفيها أن العقول تتفاوت ، والأزمان تتلاحق ، والمعلومات تتغير وتتبدل ، وهى هى لايصيبها وهن ، ولا يدركها خلل ، ولا يتبين أنها كانت رجما بالغيب ، أو اقتحاما بدون علم ، أو تصويراً فاسداً ، أو أقوالاً خطابية ، أو دراسات مضطربة أو ناقصة .

أليس فى كل ذلك آية كبرى على أن هذا القرآن إنما هو بيان إلهى للناس ، وأن الرسول الذى جاء به صادق فى دعواه أنه من عند الله ؟ .

بلى !! وتلك هى المعجزة الخالدة ، التى يعرفها الناس جميعا فى كل زمان ومكان : أعرفها أنا ، وتعرفها أنت ، ويعرفها العجمى ، ويعرفها الشرق والغرب والشمال والجنوب ، والأول والآخر ، حيثما وجد إنسان ، وحيثما وجد عقل ، وحيثما وجد علم ، وحيثما وجد اكتشاف ، وحيثما درست نفوس وعرفت طبائع ، وأدركت سنن : ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾[1] .

فمن هذه الآفاق إذن يجب أن يلتمس الإيمان بإعجاز الإيمان .

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

ذكرت كلمة « الإنسان » فى القرآن الكريم نحو سبعين مرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه ، فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربى أكرمن وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول : ربى أهانن ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوسا ﴾ [4] إلى غير ذلك من المواضع التي نرى فى كثير منها تقريراً لصفات هذا المخلوق ، وتنبيها على ماوهب من ملكات ، وماله من صفات طبيعية فطر عليها ، وكان لها آثارها فى تصرفه وعمله وسعيه واعتقاده .

وإذا أدخلنا فى الإحصاء حديث القرآن عن هذا المخلوق بعنوان

---

(١) الآية ٦ – ٨ من سورةالإنفطار .
(٢) الآية ١٥ ، ١٦ من سورة الفجر .
(٣) الآية ٦ ، ٧ من سورةالعلق .
(٤) الآية ٨٣ من سورة الإسراء .

آخر غير عنوان «الإنسان» ككلمة «الناس» أو «الإناس» أو «بنى آدم» مثلا ، فإن عدد المواضع التى ذكر فيها يربو على المئات ، مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ﴾ (٣) ، وقوله تعالى :﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ (٥) إلى غير ذلك .

ثم إذا أضفنا إلى تلك المواضع ماورد فى القرآن الكريم من حديث عن الناس بأوصاف «المؤمنين» أو «الكافرين» أو «المنافقين» أو نحو ذلك ، وما جاء من قصص عن الماضين من «قوم نوح» ، و «قوم هود» و «قوم صالح» ومن الأنبياء والرسل ، ومن

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٢) الآية ٥ من سورة الحج .
(٣) الآية ٢١ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٦٠ من سورة البقرة .

الملوك والمسلطين ، والتابعين والمتبوعين إلى غير ذلك فإننا نستطيع أن نقول : إن آيات القرآن الكريم لا تكاد تخلو آية منها عن ذكر شىء من ذلك .

والخلاصة أن القرآن الكريم كله موجه إلى الإنسان ، وأن هدايته وأحكامه وقصصه وعبره ومثله ومناشداته ومحاوراته وبراهينه ودراساته ، كل ذلك مسوق لهذا المخلوق ، منزل لمصلحته ، ميسر له ، مقصود به الأخذ بيده إلى طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة .

وقد يرد فى القرآن بعض آيات عن غير الإنسان ، أو موجهة إلى غير الإنسان ، كالحديث عن الجن فى سورة الجن وغيرها ، وهى مواضع قليلة بجانب الحديث عن الإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، ثم هى فى أكثر الأمر مسوقة على أن غير الإنس فيها تابعون للإنس ، مثل قوله تعالى : ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

(١) الآية ٢٣ من سورة الرحمن .

بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [1] ، فإن كلتا الآيتين في مقام التحدى لقوة الجنسين ، وقدم فى الآية الأولى ذكر الجن على الإنس جرياً على ما يجىء فى النفوس من أن الجن أقدر على ما لا يقدر عليه الإنس ، والحقيقة أن المعنى إنما هو للإنس ، إذ هم الممكنون من هذا الكون ، المسخرة لهم سماؤه وأرضه ، على حين أن الجن لم يمكنوا هذا التمكين ، ولم يطوع لهم من سنن الكائنات ما طوع للإنسان . أما الآية الثانية فقدم فيها ذكر الإنس على الجن لأن المقام مقام تحد بالقول ، والإتيان بمثل القرآن فى بيانه ، وذلك هو مجال الإنس ، وما الجن فيه إلا تابعون ، وإنما ذكروا ليبلغ التحدى مداه .

* * *

لا شك أن هذه عناية عظمى بشأن هذا المخلوق ، الذى هو الإنسان ، وأى عناية أعظم من أن تنزل من الله تعالى الذى هو الرب الخالق المستغنى ، كتب على الناس الذين هم عبيد مربوبون مخلوقون محتاجون ؟ إن الله تعالى يخاطب عباده فى كثير من الآيات ، مبيناً لهم مظاهر ربوبيته ، ووجود نعمته ، فيقول لهم

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

مثلاً : ﴿ والأنعام خلقها لكـم ﴾ (١) ، ﴿ وهو الـذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ (٢) ، ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ (٣) ، ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ (٤) إلى غير ذلك من توجيه الخطاب إلى الناس ، وهناك مناشدات إلهية مؤثرة مثل قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (٥) ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (٦) . وغير ذلك مما يجعلنا نقف موقف التعجب والإعجاب من هذا الكرم الإلهى ، والرحمة العظمى التى جعلت الغنى يناشد المحتاج ، والقادر القوى يناشد العاجز الضعيف ، وما ذلك إلا لأن هذا المخلوق قد أحيط من الخالق بمختلف ألوان العناية فى خلقه وتربيته ، وإعداده وإمداده .

وإنى لأقف أحياناً موقف الاعتزاز بإنسانيتى ، إذ أشعر بأننى واحد

(١) الآية ٥ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٤ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٠ من سورة النحل .
(٤) الآية ٥٤ من سورة طه .
(٥) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(٦) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .

من هذا الجنس الذى كـرم هذا التكريم ، وخـوطب هذا الخطاب ، ونوشد هذه المناشدة من الله العلى الكبير .

والأمر الذى أرمى إلى أن يشاركنى فيه القارىء هو الإيمان بهذا الإنسان ، الإيمان بقيمته الكبرى كما تبدو من عناية الله به ، وتكريمه إياه ، الإيمان بأنه ميسر لرسالة كبرى خلقه الله لها ، وزوده بأدواتها ، وأن الذين يظنون أن الإنسان مخلوق تافه ، أو أنه يصبح بالعصيان والتمرد فى بعض أوقاته أو أحواله مخلوقاً تافهاً ، إنما يصدرون عن فكرة تغفل عن القرآن وتوجيهات القرآن .

* * *

وازن القرآن الكريم بين الإنسان وبين السموات والأرض والجبال ، فى احدى آياته ، وهى قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ (١) .

كما وازن بين الإنسان والملائكة فى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

إنى أعلم مالا تعلمون ،وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (١) .

ومن سبيلنا أن نتحدث عن كل من هاتين الموازنتين لأنهما موازنتان إلهيتان عادلتان ، ومن شأنهما أن تحددا لنا مركز هذا المخلوق فى هذا العالم بين القوى المسخرة سواء أكانت عاقلة فاهمة كالملائكة ، أو غير عاقلة ولا فاهمة كالسموات والأرض والجبال .

فالآية الأولى تذكر أن هناك « أمانة » وأن الله عرض هذه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، أى أنه كان هناك عرض من الله ، وإباء من هذه الثلاثة مقترن أو منبعث عن إشفاق وخوف ، وأما الإنسان فإنها عرضت عليه أيضاً فكان موقفه غير موقف السموات والأرض والجبال ، إذ قبل الأمانة التى عرضت عليه وحملها ، والسر فى قبوله إياها وحمله لها أنه كان ظلوماً جهولا .

ماذا يقول المفسرون هنا ؟ إنهم يهيمون فى أودية الروايات

---

(١) الآيات من ٣٠ إلى ٣٣ من سورة البقرة .

كعادتهم فى كثير من الأحيان ، فيقولون نقلاً عن هذا أو ذاك من الرواة : أن الله تعالى : « لما خلق الأمانة مثلها صخرة ثم وضعها حيث شاء ، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها ، وقال لهن : إن هذه الأمانة ، لها ثواب وعليها عقاب ، قالوا : يارب لا طاقة لنا بها ، وأقبل الإنسان من قبل أن يدعى فقال للسموات والأرض : ما وقوفكم ؟ قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقنا منها ولم نطقها ، فحركها بيده وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها ، فحملها حتى بلغ بها حقويه (أى خاصرتيه) ثم وضعها ، وقال : والله لو شئت أن ازداد لازددت ، قالوا : دونك ، فحملها حتى وضعها على عاتقه ، فلما أهوى ليضعها قالوا : مكانك إن هذه الأمانة ، ولها ثواب وعليها عقاب ، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقنا منها ، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها فهى فى عنقك وفى أعناق ذريتك إلى يوم القيامة ، إنك كنت ظلوماً جهولا » ، « أو هى ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده وأهله وخيانته إياه فى قتل أخيه ، وذلك أن الله تعالى قال لآدم : هل تعلم أن لى بيتاً فى الأرض ؟ قال : اللهم لا ، قال : فإن لى بيتاً بمكة فأته ، فقال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة ، فأبت ، وقال للأرض احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للجبال كذلك فأبت ،

فقال لقابيل : احفظ ولدى بالأمانة ، فقال : نعم ، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك ، فرجع فوجده قد قتل أخاه ، فذلك قوله تعـالى : ﴿إنا عـرضنا الأمـانة على .... الآية﴾ ، «أو هى التكاليف وتقلد الشرائع ، فإن هذا أمر تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلفه الإنسان ، وهو ظلوم جهول» ، «أو هى أمانات الأموال كالودائع وغيرها ، أو الصلاة ، أو غسل الجنابة» إلى غير ذلك من الأقوال التى نراها فى كتب التفسير المختلفة .

ويلاحظ أن تلك الأقوال كلها تأخذ الأمر فى هذه الموازنة على حرفيته ، وتجرى الكلام على الحقيقة صرفاً ، فتقرر أن هناك عرضاً وحواراً وإباء وقبولاً وإشفاقاً وحملاً ، وكل ذلك على وجه الحقيقة .

«وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أى أننا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿إنا عرضنا الأمانة ... الآية﴾ ، وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل ، فرأيت أنها تقصر عنه» (١) .

(١) ص٢٥٥ ج ١٤ من تفسير القرطبى، وكل ما ذكرناه من الأقوال فى شرح هذه الآية فهو من المرجع، وكتب التفسير الأخرى لا تكاد تخالفه .

هذا هو الشأن فى آية الأمانة كما نراه فى كتب التفسير ، ولا شك أن القارىء الحصيف لا يقتنع بشىء من ذلك ، ويظل فى نفسه شىء بل أشياء : فله أن يقول للذين يأخذون الأمر مأخذ الحقيقة لا مأخذ التمثيل والمجاز .

كيف تم هذا العرض على السموات والأرض والجبال حقيقة وهى لاتعقل ؟

وماذا كانت الغاية من هذا العرض ؟

وكيف عرضت الفرائض والتكاليف على هذه الأشياء ؟

وهل معنى ذلك أن طلب السموات والأرض والجبال أن تصلى أو تزكى مثلاً ؟

وإذا قيل إن تكاليف هذه الأشياء بما يناسبها ، وتكاليف الإنسان نوع آخر يناسبه ، فلم إذن أبت السموات والأرض والجبال ما يناسبها ؟

وما هى هذه التكاليف التى أبتها وأشفقت منها ؟ وأين فى الكلام ما يدل على أن « الأمانة » بالنسبة للسموات والأرض والجبال غير « الأمانة » بالنسبة للإنسان ؟

ثم أين فى الآية ما يدل على أن الأمانة عرضت على الإنسان كما

عرضت على غيره مع أن كل ما فى الآية أن الإنسان حملها فلم يقل الله تعالى : وعرضناها على الإنسان فحملها ، إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التى ترد على كل تفسير من هذه التفسيرات الآخذة بالحقيقة الحرفية .

وللقارىء أن يقول للذين يأخذون الأمر مأخذ التمثيل والمجاز : ماهى الأمانة المرادة فى هذا التعبير ؟ وما الذى قامت عليه الموازنة بين السموات والأرض والجبال ، وبين الإنسان ؟

أهو التكاليف على معنى أنها لو عرضت على هذه الأشياء لما أطاقتها ، على حين أن الإنسان أطاقها وحملها ؟

وكيف يوازن بين شيئين مختلفين تكويناً واستعدادا ؟ وما فائدة هذه الموازنة التى يمكن أن تعود إلى قارىء هذا الكتاب المبين ؟

وإلى أى نوع من أنواع الهداية القرآنية يرجع ذلك ؟.

كل هذا يرد على تلك التفاسير ، فعلينا إذن أن ننظر نظرة أخرى فى شأن هذه الموازنة ، والله المستعان . . .

لخصنا فى الفصل السابق ما للمفسرين من آراء منبثقة عن رواية أو عن اجتهاد ، فى معنى قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ [1] وبدا من كلامنا أننا لا نستريح إلى ما أوردناه من تلك الآراء ، لما يرد عليها من أسئلة واعتراضات ليست لها أجوبة مقنعة ، والآن نذكر رأينا فى هذه الآية ، وبالله التوفيق :

يأتى القرآن الكريم فى بعض الأحيان بالحقائق التى يريد تقريبها للناس مصوراً الأمر فيها بصورة حديث فيه أخذ ورد ومخاطبة ومقاولة ، وتلك سنة مألوفة من سنن البلاغة العربية ، فنراهم مثلاً يقولون : « قال الفقر إنى ذاهب إلى بلد كذا ، فقال له الكفر : خذنى معك » . فالفقر والكفر ليسا بناطقين يتكلمان ، ولكن الغرض من هذا الكلام إفادة أن الفقر والكفر بينهما نوع من الارتباط والتلازم أساسه أن الفقر يبعث على

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

الجزع ، والجزع يجر إلى الكفر ، وقد أخرج هذا المعنى بهذا الأسلوب ليكون على المعهود من شئون المتصاحبين المتلازمين إذا أراد أحدهما أن يسير مسيرا ماتعلق به الآخر وسار معه ، فهى صورة تمثيلية فى الأقوال ، كما أن هناك صوراً فى تمثيل الأفعال مثل قولهم فيمن يتردد ولا يثبت على رأى واحد : « أراك تقدم رِجلاً وتؤخر أخرى » فليس هنا رِجل تقدم ، أو تؤخر فعلاً ، ولكنه تمثيل لحالة من يعزم على الشيء فيأخذ فيه ، ثم يرجع عن عزمه فيضرب عنه ، بحال من يريد أن يتقدم فيقدم رِجلاً ثم يبدو له أن يحجم فيؤخرها تارة أخرى .

وفى القرآن الكريم من ذلك أمثلة صالحة للإستشهاد ، منها قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ (١) . فمن المعروف أن الأمر هنا أمر تكوينى لا قولى ، ولكنه عبر عنه بأسلوب « المقاولة » – قال لها وللأرض ، وقالتا – ليعطى الصورة المعهودة فى التجاوب بين المأمور المطيع ، والآمر المطاع ، وعلى هذا المعنى يفسر الحذاق قوله تعالى : ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (٢) و ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم

(١) الآية ١١ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .

خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (١). وأمثال ذلك ، فليس المراد – والله أعلم – أن الله تعالى حين يريد خلق شيء يقول هذا القول كلاماً ، ولكن هو تصوير كما بينا للتجاوب المعهود السريع بين آمر مطاع ومأمور مطيع ، وهو تعبير يفيد معنى السرعة أكثر مما لو قيل مثلاً : « إذا أردنا شيئاً فعلناه » ، لأن الفعل فيما يعهده الناس معالجة تحتاج إلى وقت ، أما ﴿ كن فيكون ﴾ فهي صورة بارعة لتقريب معنى سرعة التلبية على أحسن وجه .

وهذا يكشف لنا الوجه الأمثل لتفسير مثل قوله تعالى في شأن عيسى : ﴿ يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾ (٢) . وقوله عز وجل في معرض بيان عظمته وعدم إنتهاء مظاهر تصريفه وقدرته : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ (٣) . فقد اختير لفظ « الكلمة » و « الكلمات » لإفادة معنى اليسر في حقه تعالى ، وأن تصاريف فعله وسرعة نفوذ مشيئته هي أشبه بكلمة المتكلم التي لا تكلف أكثر من النطق بها ، والله أعلى وأجل ، وتلك الأمثال يضربها للناس .

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٤٥ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

بعد هذا يمكننا أن نفهم العرض فى قوله تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾ على أنه تمثيل وتقريب لحالة تكوينية ، فليس هناك عرض حقيقى من الله وإباء وإشفاق حقيقيان من هذه المخلوقات ، وإنما هو أسلوب جاء على ماعهده العرب فى كلامهم .

وإلى هنا نجد فى كلام المفسرين ما يؤيد هذا الرأى ، وإن خلطوا به مالانقره :

فالقرطبى ينقل فى تفسيره عن القفال وغيره « أن العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع » ثم يقول : « وقال قوم : إن الآية من المجاز أى أننا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ الآية ، وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيتها تقصر عنه » [1] .

---

(١) ص ٢٥٦ ج ١٤ من تفسير القرطبى طبع دار الكتب المصرية .

ونحن نقر من هذا أن الأمر فيه ضرب مثل ، وأن قوله تعالى : « عرضنا – فأبين – وأشفقن » من باب قول القائل : « عرضت الحمل على البعير فأباه » أى قايست قوته بثقل الحمل فرأيتها تقصر عنه ، نقر هذا، ولكن لا نقر أن الأمانة التى صور عرضها بهذا الأسلوب هى التكاليف والشرائع ، كما سنوضح فيما بعد .

ويقول الزمخشرى فى الكشاف عند تفسيره لآية الأمانة هذه : « ... ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب ، وماجاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم ، من ذلك قولهم : لوقيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج ، وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات ، وتصور مقاولة الشحم محال ، ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه ، كما أن العجف مما يقبح حسنه ، فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع فى نفس السامع ، وهى به آنس ، وله أقبل ، وعلى حقيقته أوقف ، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها ، وثقل محملها والوفاء بها » [1] .

وهذا كلام جيد ، إلا ماجاء فى آخره مما يفيد أن الزمخشرى يفهم

(١) ص ٢٤٩ ج ٣ من الكشاف .

الأمانة على أنها تكليف فيه ثقل ، وفى حمله صعوبة ، وهو غير واضح كما سيأتى .

وكل مانريده الآن قبل أن ننتقل إلى بيان المراد من الأمانة ، هو أن يلتفت القارىء إلى هذا المعنى الذى ذكرناه ، وهو أن العرض فى الآية ليس عرضا حقيقيا ، وإنما يراد به تصوير معنى عدم التوافق بين السموات والأرض والجبال ، وبين الأمانة ، أى أن هذه الأشياء بحسب تكوينها وخلقتها ليس بينها وبين الأمانة توافق وترابط وتلاؤم، على العكس من الإنسان الذى هو بحسب خلقه وطبيعة تكوينه وما منح من المواهب الخاصة حامل للأمانة فعلا لأنه ملائم لها ، مكون على صفات توافق حملها .

هذا هو المعنى الذى أريد من القارىء أن يدركه ويتابعنى عليه حتى آتى له بتفسير الأمانة نفسها ، وهو معنى يتفق فى المبدأ مع الأمثلة التى ذكرناها وذكرها المفسرون من كلام العرب ومن القرآن ، ولاينبغى أن يجفل منه القارىء بحجة أن فيه إخراجا للفظ « عرضنا » عن معناه الحقيقى ، فإن هذا سائغ وله نظائره فى الكلام وفى القرآن ، وماأنزل القرآن إلا بلسان عربى مبين .



والآن ما المراد من الأمانة فى الآية ؟

إن كلمة « الأمانة » تستعمل تارة بمعنى الخلق الذى يكون به الإنسان وفيا حفيظا على ما أؤتمن عليه ، فيقال : فلان فيه أمانة ، أى هو أمين غير خائن ، وتستعمل تارة أخرى بمعنى الشىء المؤتمن عليه ، فالمال المودع عندك هو أمانة لديك ، وزوجتك عندك أمانة ، وولدك أمانة وهكذا ، وعلى هذا المعنى الثانى فى قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ (١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ (٢) .

وعلى كلا الأمرين يلاحظ فى معنى الأمانة أن يكون صاحبها قادرا على أن يؤديها وألا يؤديها بمحض إرادته ، فالدين الموثق بالشهادة أو بالكتابة ليس أمانة عند المدين ، لأنه بالتوثيق أو الكتابة صار غير مؤتمن ، وبتعبير آخر نقول : أن الأمين على الشىء هو الذى أعطى هذا الشىء دون أى توثق عليه باستشهاد أو كتابة أو نحو ذلك ، وإنما وكل إلى أمانته ، واعتمد على مجرد الثقة فيه ، وحينئذ يكون ضميره هو الذى يحكم فى شأن

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .

هذه الوديعة إما بحفظها وأدائها إن كان ضميراً حياً ، وإما باغتيالها وهو آمن إن كان ضميراً ميتاً أو مريضاً .

فأنت لا توصف بالأمانة إلا إذا كان لك القدرة على أن تحفظ وتضيع ، أما الذى لا يستطيع إلا أن يحفظ ، فلا يوصف بكونه أمينا ، كما أن الذى لا يستطيع إلا أن يضيع ، لا يوصف بعدم الأمانة ، فالمدار على وجود حالة الاختيار فى هذا وذاك ، وبدون هذا الاختيار لا يوصف الإنسان بالأمانة سلباً أو إيجاباً .

إذا تقرر هذا فإننا إذا وازنا بين الإنسان وبين السموات والأرض والجبال ، وجدنا الإنسان هو القادر بحسب تكوينه ومواهب الله التى منحها ، على أن يتدبر العواقب ، ويتخذ فى كل شىء قراراً بأن يفعل أو يترك نتيجة لتقدير هذه العواقب ، فهو قادر مختار مفكر متدبر يزن الأمور ، ويقلبها ثم يتخذ فيها قراره ، ونريد – طبعا – أن هذا هو شأنه وماخلق عليه ، ولايتنافى هذا مع كونه قد يختار الشر، وهو يعلم سوء عاقبته ، أو قد يندفع، وماكان له أن يندفع دون ترو وتفكر .

هذا شأن الإنسان ، وهذا هو ما اصطلح الناس على تسميته بالشعور بالمسئولية وهو لا يوجد فى السموات والأرض والجبال ، لأنها

مسخرة بسنة الله تعالى إلى ماخلقت له ، فلا تملك أن تحيد عنه ، فليس للشمس خيار فى أداء وظيفتها ، وإنما هى محكومة بقانون لاتنفك عنه ، ولا إرادة لها ولا اختيار ، وقل مثل ذلك فى الأرض والجبال ، فكل وظائفها لا إرادية ، وإذن فليس من شأنها أن تحمل مسئولية ، لأن ركن المسئولية هو الاختيار وهى ليست مختارة ، فالآية توازن بين الإنسان، وهذه الأشياء ليعلم أن الإنسان هو المنفرد من بينها بحمل المسئولية ، والشعور بالتبعة ، وبذلك يتحدد مركزه وقيمته فى الكون .

فالمراد من التعبير بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وإبائها أن تحملها ، وإشفاقها منها ، تقرير أنها لا تتفق وطبيعتها وماخلقت عليه ، فهى تأباها أى تنافرها ، ومعنى إشفاقها منها أنها لوكانت قد خلقت على نحو ماخلق عليه الإنسان من اختيار وائتمان ، لكان هناك خوف وإشفاق على مصير العالم ، فلنتصور أن الشمس مثلا خلقت على نحو يجعلها مختارة فى أداء وظيفتها مؤتمنة على ذلك ، فهل يؤمن بقاء الكون إلى أجله المقدر له مع هذا الإختيار الذى فيه احتمال أن تختار التمرد والخروج على أمر الله كما يفعل الإنسان أحيانا ؟

لذلك كان من الحكمة أن خلق الله السموات والأرض والجبال

على ماخلقها عليه خاضعة لنواميس ليس لها اختيار فى تطبيقها والسير عليها ، أما الإنسان فإن خروجه على مقتضى النظرة السليمة فى كثير من الأحيان لا يؤدى إلى فساد كلى كونى ، وإنما يؤدى إلى فساد جزئى أو فردى فلا إشفاق منه ، ولا خوف من حمله الأمانة .

وقد ذيلت الآية بقوله تعالى عن الإنسان : ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ لبيان السر فى صلاحيته للمسئولية وعدم صلاحية السموات والأرض والجبال لها ، فهو الذى من شأنه أن يظلم ، ويتعدى حدوده ، ويجهل فيخرج عن مقتضى النظر والتفكير السليم انسياقاً مع الشهوة أو الغضب ، فهذا المعنى مركب فيه ، وليس فى هذه الأجرام بحسب تكوينها ، ووجوده فى الإنسان من دونها يجعله هو الحامل للأمانة من دونها ، لأن عناصر الإئتمان إنما تتكون من وجود النوازع مع القدرة على الشيء وضده .

والخلاصة : أن هذه الآية الكريمة قد عقدت موازنة بين الإنسان وهذه الموجودات ، غايتها لفت النظر إلى ما اختص به الإنسان من طبيعة ملائمة لحمله «المسئولية» المعبر عنها بالأمانة ، لأن أمرها موكول إليه يزنه بمحض تفكيره وتأمله ونظره ، ولأنه يملك عناصر الإختيار التى هى أساس فى الإئتمان ، مع قيام الدوافع والنوازع ، أى الأغراض والشهوات .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [١].

من اطلع على كتب التفسير وغيرها من الكتب التى عرضت لهذه الآيات من سورة البقرة ، عرف أن للعلماء فيها طريقتين :

الطريقة الأولى : طريقة الجمهور ، وهم الذين حملوا الكلام على الحقيقة ، ففسروا الآيات على أن هناك محاورة وقعت فعلا بين

(١) الآيات ٣٠ – ٣٣ من سورة البقرة .

الله وملائكته ، وجعلوا يبينون فى كل موضع سر هذا القول أو ذاك من الأقوال التى أسندت إلى الله تعالى ، أو إلى ملائكته ، كما جعلوا يؤولون أو يخرجون فى معانى هذه الأقوال حينما يبدو فى بعضها ما يصادم أصلا مقرراً فى صفات الله العليم الحكيم الذى لايسأل عما يفعل ، أو فى صفات ملائكته الذين ﴿ **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾ (١) .

وأصحاب هذه الطريقة يختلفون فى التفصيلات اختلافاً كبيراً ، فمنهم من يرى أن قوله تعالى للملائكة : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ كان على سبيل الإخبار ، ومنهم من يقول : كان على سبيل الاستشارة ، وقد روى هذا عن السدى وعن قتادة، ثم منهم من روى أن المراد بالأرض مكة، ومنهم من ضعف هذه الرواية واستظهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك ، ثم منهم من قال إن معنى الكلام : إنى جاعل فى الأرض خليفة منى يخلفنى فى الحكم بالعدل بين خلقى وهو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله ، ومنهم من قال : إن الخليفة هو النوع الإنسانى ، ومعنى خلافته سكناه الأرض ، وكما اختلفوا فى هذا الموضع اختلفوا فى المراد

(١) الآية ٢٧ من سورة الأنبياء .

بتعليم آدم الأسماء كلها ، فمنهم من قال : علمه كل شيء حتى اسم الصفحة والقدر ، ومنهم من قال : أسماء النجوم ، ومنهم من قال : أسماء ذريته كلهم وأسماء الملائكة ، ومنهم من قال : المراد تعليمه جميع اللغات التى نطق بها فيما بعد ذريته ، وفرعوا على ذلك البحث المشهور : هل اللغات توقيف أو اصطلاح ؟ إلى غير ذلك من مواضع الخلاف وصورها [١] .

أما الطريقة الأخرى : فهى طريقة الأقلين من العلماء ، وهم الذين حملوا الكلام على أسلوب التمثيل المألوف عند العرب ، والذى استعمله القرآن فى مثل : ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ [٢] ، ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ [٣] ، وقد تحدثنا من قبل عن هذا الأسلوب فى الكلام على قوله تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ .

ومن الذين ساروا على هذه الطريقة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه ، فقد لخص المرحوم الأستاذ الشيخ رشيد رضا رأيه فى تفسير المنار إذ يقول :

---

(١) وفى تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى وغيرهما، بيان واسع عن هذا الخلاف وفروعه ومظاهره .
(٢) الآية ٣٠ من سورة ق .
(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .

« وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا : إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئه الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض ، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره، ويعطى استعداداً فى العلم والعمل لا حد لهما ، هو تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك ، وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض وتعليم آدم الأسماء كلها ، بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض ، وانتفاعه به فى استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدود لا يتعدى وظيفته .. إلخ »[1] .

* * *

وليس من غرضنا فى هذا البحث أن نبين ما يؤخذ على هؤلاء وأولئك وما يدافعون به ، وإنما أردنا فقط أن نعطى القارىء صورة موجزة عن هاتين الطريقتين ، ثم ننتقل إلى تسجيل ما يهمنا من الحقائق فى هذا الشأن .

---

(١) ص ٢٨١ ج أول من تفسير المنار .

فسواء أكان الأمر مبنياً على الحقيقة ، أو مصوراً بصورة التمثيل ، فإن هذه الموازنة القرآنية بين هذين النوعين من الخلق ، وهما الإنسان والملائكة ، قد انتهت إلى تقرير الحقيقتين الآتيتين :

أولا : الملائكة خلق مسبح بحمد الله مقدس له ، أى أن كل مايصدر عنهم هو طاعة وعبادة ، ولا يمكن أن يصدر عنهم عصيان لله ، وخروج على أمره .

أما الإنسان فهو خلق يصدر عنه – أى عن مجموعه – الفساد وسفك الدماء ، فلا يمكن أن يتصور خلو هذا النوع ممن يفسد ويسفك ، لأن هذا هو مقتضى التزاحم والتنافس على فرص الحياة ومافيها من متاع ، ومقتضى مافطر عليه الإنسان من شهوة وغضب .

ولازم هذا أن الطبيعة التى تحتمل صدور الفساد – وهى طبيعة الإنسان – لم تحل بينه وبين أن يكون خليفة فى الأرض ، أى سيدا لها ممكنا فيها ، قائما بأمر الله عليها إلى الأجل المسمى لهذا الكوكب عند الله ، وأن الطبيعة التى يستحيل عليها الفساد والتمرد – وهى طبيعة الملائكة – لم تقتض أن يعهد إلى أصحابها بالخلافة فى الأرض ، والقيام على أمر الله فيها .

وبعبارة أخرى : لم يكن انطواء الإنسان على الغريزة التى من شأنها أن يصدر عنها الفساد والعصيان ، مانعا - ولم يكن انطوٴاء الملائكة على الفطرة الصافية المبرأة عن الاتجاه إلى الفساد والعصيان مقتضيا .

وهذا كله يؤخذ من قوله تعالى ردا على سؤال الملائكة : ﴿إنى أعلم مالا تعلمون﴾ فالله تعالى لم يبطل ماقرروه من أن الإنسان ﴿يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ ولكن أبطل مايدل عليه السؤال من أنهم وهم المسبحون المقدسون أليق بالخلافة على الأرض ، فكأنه يقول : إن الإفساد والسفك ليسا كل شيء فى طبيعة هذا المخلوق ، ولكنه مزود بقوى ومواهب واستعدادات أخرى ترجح وزنه ، وتغمر طبيعة الفساد والسفك فيه ، بل إن الفساد والسفك كثيراً ما يكونان سبيلا إلى الصلاح وصون الدماء ، ولا يقال إن قوله تعالى : ﴿إنى أعلم مالا تعلمون﴾ غير كاف فى الرد على السؤال الذى ورد على ألسنة الملائكة ، وأنه لا يعدو أن يكون إجمالا شديدا فى مقام يقتضى التفصيل للإقناع وإقامة الحجة - لا يقال ذلك ، لأن الكلام أتبع بقوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ وفى ذلك بيان لوجه اختيار لإنسان خليفة من دون الملائكة .

وأحب أن أقرر هنا معنى لم أجد أحداً ممن تكلموا فى هذه الآيات قرره ، وذلك هو أنه لا ينبغى أن يفهم من قوله : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ماقد يبدو من أن هذا التعليم الإلهى وقع أثر سؤال الملائكة ورد الله عليهم ، فلو كان الأمر كذلك لكان لسائل أن يسأل : أى حجة فى أن يعلم الله آدم الأسماء بعد محاجتهم إياه جل وعلا ، ليقيم عليهم الحجة بأنه أليق منهم ؟ والمفروض أنه قد اختاره لذلك ورجحه عليهم فلا يستقيم أن يكون التعليم واقعا بعد المحاجة ، والوجه فى هذا أن يقال : إن قوله تعالى : ﴿وعلم آدم﴾ الخ ، كلام جاء على أسلوب الجمل المعترضة ، كأنه قال : وكان علم آدم الأسماء أى خلقه منذ خلقه معلما ذلك ، وهذا نظير ماجاء فى آية الأمانة حيث قال تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ فليس المراد : وعرضناها على الإنسان فحملها، ولكن المراد والله أعلم : وخلقنا الإنسان منذ خلقناه حاملا إياها ، لأن طبيعة حمله المسئولية مركوزة فيه منذ أول مرة ، فلم يأت عليه وقت كان فيه غير حامل ثم حمل ، وكذلك لم يأت على الإنسان وقت كان فيه غير مستعد لمعرفة مافى الكون من الخواص على ماسنبين ، ثم صار مستعداً .

وبهذا يتبين أن قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ هو بيان لوجه استحقاقه الخلافة من دون الملائكة ، ووجه الاستحقاق لابد أن يكون موجودا حالة الاختيار ، ولا معنى لأن أختار إنسانا ما لعمل أريده ، فإذا جودلت فى سر اختياره عرفته خواص هذا العمل ليبدو لمن جادلنى فيه أنه أحق به .

ثانيــا : الإنسان قد خص بموهبة لم يهبها الله ملائكته ، وهذه الموهبة هى أساس استحقاقه الخلافة فى الأرض من دونهم ، فالله تعالى يقول : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ثم يبين أن الملائكة عاجزون عن علم ماعلم الله آدم ، معترفون بلسان المقال أو بلسان الحال بهذا العجز حيث يقولون : ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ وتلك الموهبة هى قدرة الإنسان بحسب مافطر عليه ، على معرفة خواص الأشياء المنبثة فى هذا الكون ، ومتابعتها بالنظر واستنباط المعلوم من المجهول ، والترقى من معلوم إلى معلوم ويرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ .

وأحب أن أقف قليلا عند لفظ « علم » فإن هذا اللفظ ورد فى القرآن دالا على معنى خلق الاستعداد لشىء ، مثل قوله : ﴿علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم﴾ [1] . فإن معناه – والله أعلم – أنه

---

(١) الآيتين ٤ – ٥ من سورة العلق .

هيأه على طبيعة ومجموعة من الملكات القابلة ، تجعله مستعدا للتعلم بالقلم ، وتعلم مالم يكن يعلم عن طريق التتبع كما يتعلم ما لم يكن يعلم عن طريق التلقى ، وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ (١) فقوله تعالى : ﴿ علم القرآن ﴾ صالح فيما أرى لأن يفسر بتفسيرين :

أحدهما : أن « القرآن » بمعنى القراءة ، فإن اللغة تقول : قرأ يقرأ قراءة وقرآنا ، فهو مصدر والامتنان فيه بأن الله تعالى وهب الإنسان خاصية القراءة من بين سائر الحيوان المشارك له فى جنسه الأعم ، فليس فيها من يستطيع أن يقرأ غيره ، كما امتن فى الآية الأخيرة بأنه ﴿ علمه البيان ﴾ فليس فى الحيوان من له قدرة البيان إلا الإنسان ، فتعليمه البيان هو جعله على حالة يستطيع معها أن يبين ، وأن يتفاهم بألفاظ مرتبة يصطلح عليها، ويحل بها سائر مشكلاته ، وينظم على أساسها مجتمعه ، ولا ينبغى أن يظن أن ﴿ علم القرآن ﴾ بهذا المعنى تغنى عن ﴿ علمه البيان ﴾ فإن البيان أعم ، والقرآن بمعنى القراءة أخص ، ولا يقال عن شىء نطق به الناطق « قرآنا » حتى يكون نوعًا ممتازاً من البيان لا مجرد إبانة عن القصد بأى كلام ، وفى أى شأن .

والخلاصة فى هذا الوجه أن « علم القرآن » و « علمه البيان »

(١) الآيات من ١ - ٤ من سورة الرحمن .

يراد بهما ماخلق عليه الإنسان من استعداد وتمكين من أن يكون قارئا ومبينا ، وذلك يؤنسنا حين نفسر قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ بأن المراد خلقه على حالة يكون بها مستعدا لمعرفة الخواص وتتبعها والإفادة منها على وجه الترقى ، لا كالملائكة الذين لا يعرفون الأشياء إلا على وجه التلقى ، المعبر عنه بما يحكيه الله عنهم من قوله : ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ .

الثانى : من الوجهين الصالحين لأن تفسر بهما الآيات الأولى من سورة « الرحمن » أن القرآن هو الكتاب المعهود الذى أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ونبادر فنقرر أن هذا هو المتبادر ، ولكنه أيضا يفيدنا نفس الفائدة فى المراد بكلمة « علم » - بيان ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يخشى أول عهده بنزول القرآن أن يضيع شىء منه نسيانا له ، فكان - فيما صح - يلاحق الوحى ويتابعه محركا به لسانه كما يفعل الناس عادة حين يكررون مايسمعون وراء القارىء إرادة حفظه وعدم انفلات شىء منه وهذا هو المعنى المشار إليه فى قوله تعالى : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ (١) وقوله عز وجل : ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ (٢) فقد تكفل الله تعالى بتثبيت

(١) الآيات من ١٦ - ١٨ من سورة القيامة .
(٢) الآية من ٦ من سورة الأعلى .

آيات القرآن فى صدر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم منه على خلاف ما يعهد فى البشر جملة ، وهذا التعليم الإلهى هو المذكور فى قوله تعالى : ﴿علم القرآن﴾ أى علم نبيه على وجه معين بحيث لايضيع منه أى حرف ، وهكذا يتبين أن كلا من «علم القرآن» و«سنقرئك فلا تنسى» و «ان علينا جمعه وقرآنه» تتحدث عن موهبة خاصة فوق المألوف عند البشر ، يأمن النبى بها أن يضيع شىء مما ينزل عليه ، وهذا هو منطق النبوة والرسالة ، ولو جاز عقلا أن يكون الرسول فى هذا كسائر الناس ، لجاز عقلا أن يكون قد ضاع من وحى الله وقرآنه شىء ، وحاش لله .

وإذن فخلاصة هذا الوجه أيضا : أن كلمة «علم» قد عهدت فى القرآن بمعنى تهيئة الإنسان وطبعه على ملكات استعدادية خاصة تجعله ممتازا عن غيره ، فى قدرته على ما لا يقدر عليه غيره .

* * *

وبهذا ، وبما ذكرناه فى تفسير آية الأمانة ، يتبين أن القرآن الكريم قد حدد وضع الإنسان بالنسبة للسموات والأرض والجبال ، ثم بالنسبة للملائكة ، وأن هذا التحديد إنما كان هدفه بيان قيمة هذا المخلوق وما أسند إليه من مهمة عظيمة فى هذا الكون ، وما صلح به

من إمكانيـات تجـعله قـادرا على القـيـام بهـا ، وأن هذا كـله يبين لنا الحكمة الإلهية فى أن الله تعالى **قد آثر هذا** المخلوق بالخلافة فى الأرض أى بأن يكون سيدها الممكن فيها .

اللغة العربية تطلق لفظ « النفس » على معان متعددة ، منها الروح ، وشاهده قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم : أخرجوا أنفسكم﴾ [1] ومنها ما يكون به التمييز والتفكير كقولهم : فى نفس فلان أن يفعل كذا ، أى فى روعه ، وقد اجتمع هذان المعنيان فى قوله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ [2] ، قال ابن برى : إن النفس الأولى هى التى تزول بزوال الحياة ، والنفس الثانية هى التى تزول بزوال العقل .

والعرب قد تجعل النفس التى يكون بها التمييز نفسين ، وذلك أن النفس قد تأمر بشىء وتنهى عنه ، وهذا عند الإقدام على أمر مكروه ، أو أمر لم يتبين فيه الصلاح ، فجعلوا التى تأمره نفسا ، وجعلوا التى تنهاه نفسا أخرى ، وعلى ذلك قول الشاعر :

---

(١) الآية ٩٣ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

فنفساى نفس قالت : ائت ابن بجدل تجد فرجاً من كل غمى تهابها
ونفس تقول : اجهد ، نجاءك ! لا تكن كخاضبة لم يغن عنها خضابها

وكثيراً مايعبر بالنفس عن الإنسان جميعه كقولهم : عندى ثلاثة أنفس ، وتقول : قتل الإنسان نفسه ، وأهلكها ، أى أوقع الاهلاك بذاته كلها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ولا تقتلوا أنفسكم ، ان الله كان بكم رحيما﴾ (١).

وهناك معان أخرى غير ذلك لا نطيل بذكرها .

ومن الواضح أن « النفس » التى هى موضوع هذه الفصول التحليلية ، ليست هى النفس بمعنى الروح الذى تكون به حياة الجسم المادية ، وليست هى الإنسان كله ، أى هذه الذات، وهذا القالب الشخصى بجميع محتوياته أو مشتملاته ولكن موضوع هذه الدراسات هو أقرب إلى مايقول عنه اللغويون : « مابه يكون التمييز » غير أن هذا التعبير لايؤدى المعنى المقصود لنا من كل ناحية ، فإنما نريد « بالنفس الانسانية » هذا المورد الخفى الذى يشعر به كل منا فى دخيلته ، والذى تصدر عنه جميع تصرفاته الخلقية والعاطفية ، والذى هو معرض غرائزه أو ملكاته ، ومالها

(١) الآية ٢٩ من سورة النساء .

من تفاعل فيما حوله، وفيمن حوله ، على سبيل التجاوب أو التدافع .

هذا المورد الداخلى الخفى فى الإنسان ، وهذا المعرض لغرائزه وملكاته، وهذا المصدر لخواطره واتجاهاته ، هو مانريده « بالنفس الإنسانية » ، وهو مدار تلك البحوث التحليلية المستندة إلى الكتاب والسنة .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أننا سوف لا نعرض فى هذه البحوث إلى أى مظهر من المظاهر المادية للإنسان ، فإننا على العكس سنوليها كثيراً من الاهتمام باعتبارها مظاهر أصيلة لها صلات وثيقة بالنفس الإنسانية ، وقد تكون منابع لبعض الأخلاق والعواطف والاتجاهات العقلية ، كما قد تكون آثاراً ونتائج لذلك .

والمعنى الذى اعتبره العرب فى جعل النفس التى بها يكون التمييز نفسين أو أكثر ، ليس معنى حقيقياً ، وإنما هو معنى تصويرى يراد به أن النفس تتصف بصفات متعددة ، وتنتابها حالات مختلفة ، حتى كأنها نفسان أو نفوس متعددة .

وقد جاء فى القرآن الكريم ثلاث آيات وصفت النفس

الإنسانية فى كل منها بوصف معين ، وربما فهم بعض الناس من هذا أن النفوس الإنسانية أنواع أو أقسام ثلاثة :

أما هذه الآيات فهى :

أولا – قوله تعالى فى سورة الفجر : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (١).

ثانيا – قوله تعالى فى سورة القيامة : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ (٢).

ثالثا – قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم ﴾ (٣) .

وأما النفوس الثلاث المذكورة فى هذه الآيات فهى :

النفس المطمئنة ، والنفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء .

والواقع أن النفس الإنسانية واحدة ، وهذه حالات لها ، فمن غلبت على نفسه حالة من هذه الحالات وصفت بها ،

---

(١) الآيات من ٢٧ – ٣٠ من سورة الفجر .
(١) الآيتين ١ و ٢ من سورة القيامة .
(١) الآية ٥٣ من سورة يوسف .

وكلها حالات اكتسابية لها عواملها وأسبابها التى تتحقق معها « المسئولية » أو « الأمانة » التى حملها الإنسان ، وآيات القرآن واضحة فى تقرير ذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [١] ، ﴿وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت﴾ ، ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا﴾ [٢] ، ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ [٣] .

على أننا نساير هذه المظاهر المختلفة للنفس بكل اعتبار من هذه الاعتبارات الثلاثة لننظر كيف درس القرآن الكريم ماسميناه « بالنفس الإنسانية » .

النفس المطمئنة :– القرآن الكريم لا يذكر هذا الوصف العنوانى إلا فى موضع واحد ، هو الموضع الذى ذكرناه من قبل ، ولكنه يذكر فعل الإطمئنان مسندا إلى القلوب فى غير موضع ، مثل قوله تعالى : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [٤] ، ﴿وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو

(١) الآية ٣٨ من سورة المدثر .
(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ (١) ، ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ (٢) .

وطمأنينة القلب هى سكونه واستقراره بزوال القلق والاضطراب ، وهذا المعنى نفسه هو اطمئنان النفس ، وكثيراً مايعبر القرآن الكريم بالقلب والقلوب فى مقام النفس والنفوس .

ويجمل بنا أن نقف قليلا عند الآية الأولى من هذه الآيات التى تتحدث عن اطمئنان القلوب .

فقوله تعالى : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ هو بدل من قوله تعالى: ﴿من أناب﴾ فى آخر الآية السابقة : ﴿ ويهدى إليه من أناب ﴾ .

والإنابة والنوب هما الرجوع مرة بعد أخرى ، يقال ناب نوبا ، ونوبة ، وأناب إنابة ، وسمى النحل « نوبا » لرجوعها إلى مقارها ، وفلان ينتاب فلانا أى يقصده مرة بعد أخرى (٣) ، وفى القرآن الكريم : ﴿وخر راكعا وأناب﴾ (٤) ، ﴿ وإليك أنبنا ﴾ (٥) ، ﴿وأنيبوا إلى ربكم ﴾ (٦) ، ﴿ منيبين إلى واتقوه ﴾ (٧) .

---

(١) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٠٦ من سورة النحل .
(٣) مفردات الراغب مادة (نوب) .
(٤) الآية ٢٤ من سورة ص .
(٥) الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٦) الآية ٥٤ من سورة الزمر .
(٧) الآية ٣١ من سورة الروم .

فالمادة كلها تفيد معنى الرجوع والعود ، ولما كان المؤمن رجاعا إلى الله فى كل أمره : إن أخطأ تاب إليه ، وإن أخلص أرجع قصده إليه ، وإن احتاج رد نفسه عن كل ماسواه إليه ، سمي « منيبا » أى راجعا ، أو رجاعا ، وهو مثل « أواب » فى قوله تعالى : ﴿ هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ ﴾ [١] ، ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ [٢].

فالآية الكريمة تقرر سنة من سنن الله تعالى في عباده ، هى أنه يهدى إليه من كان رجاعا منيبا ، ثم تقرر أن العبد إنما يكون رجاعا إلى الله منيبا إليه إذا كان مؤمنا به ، وكان من شأنه أن يطمئن قلبا بذكره ، وهذا حكم منطقى عقلى ، فإن الرجوع إلى شيء يقتضى أن الراجع إليه مؤمن به ، أى على ثقة من وجوده، ومن صفاته التى تجعله مرجعا له ، وتقتضى أيضا أنه حين يذكر يحصل الإطمئنان القلبى لمن ألف أن يرجع إليه وثوقا به ، فلذلك جاز فى المعنى أن يبدل ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ من « من » فى قوله ﴿ ويهدى إليه من أناب ﴾ .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة ق .
(٢) الآية ٣٠ من سورة ص .

ثم تقرر الآية الكريمة سنة أخرى من سنن الله تعالى فى عباده ، هى المعبر عنها بقوله جل ذكره : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ ، وهذا لا ينبغى أن يؤخذ على أنه وعظ أو حث على ذكر الله ، فإن الأمر أجل من ذلك ، وإنما هو تعبير دقيق عن أصل من الأصول النفسية القرآنية منتزع من واقع الإنسان الذى يعلمه خالقه كما هو .

بيان ذلك : أن الإنسان مخلوق يقدر العواقب ويفكر فيها ، وإن لم يواجه الأحداث مواجهة فعلية -- فليس كالحيوان الذى لا يدرك عاقبة ما ، أو يدرك بعض العواقب على وجه ناقص ، أو لا يدرك إلا ماواجهه من الحوادث إدراكا وقتيا – وهذا هو معنى الشعور بالمسئولية أو هو الباعث الذى عنه ينبعث هذا الشعور ، والشأن فيمن يحمل المسئولية أن يشفق من الخطأ فى التصرف ، فهو يجتهد حسب استطاعته فى أن يصدر على الأشياء حكما صحيحا ، وفى أن يقف منها موقفا سليما ، مع أن بعض الظروف قد يفوته أن يلاحظه ، وبعض الشهوات أو الرغبات قد يعميه أو يصمه ، وهناك جوانب أخرى تتحكم فى قراره أو فى تصرفه من حيث لا يشعر ، فهو إذن عرضة لأن يقع فى الخطأ ، وعرضة لأن يستمر فى الخطأ حتى بعد أن يعلمه ، وعرضة لأن تجرفه الأسباب الخفية التى نسميها الأقدار ، وهو

من هذا كله فى إشفاق وفى خوف وفى حركة نفسية دائبة هى القلق وعدم الإستقرار ، وهذا شأن كل حى من هذا الجنس البشرى ، وليس له إلا علاج واحد هو الإيمان بقوة غيبية لها إرادة وتوجيه وسنن فى الهداية والتوفيق ، ولها رحمة وإحسان وحكمة وعدل ، فالدين يعطى الإنسان الإيمان بهذ القوة الغيبية السامية ، ويعلمه كيف يرجع إليها فيكون رجاعا إلى الله ، أو منيبا إليه ، أو أوابا ، ويعرفه بصفات هذه القوة التى يؤمن بها ويرجع إليها ، فتكون ثمرة هذه المعرفة هى الإطمئنان والسكون وقرار النفس ، وابتعاد عوامل القلق والاضطراب والانزعاج .

فهذا هو المقصود بقوله تعالى : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ وهو حصر بتقديم الجار والمجرور فى قوله ﴿بذكر الله﴾ أى ليس من شأن القلوب أن تطمئن ألا بذكر الله ، وقد جرت سنة الله فى خلقه ، وعلمتنا التجارب وحوادث الدهر أن من اطمأن قلبه إلى شىء سوى الله تعالى أتاه القلق والاضطراب من قبله ، أما من يكون اطمئنانه بالله فهو يتلقى كل شىء من الله حكما وفعلا وتصريفا وتدبيرا بالقبول والتسليم ، فيجد لذلك ثلج اليقين ، وقد وازن القرآن الكريم بين من اطمأنت قلوبهم بالإيمان ، ومن اطمأنوا بالحياة الدنيا

وفرحوا بها فقال تعالى :﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم﴾ (١) .

وفى السنة المطهرة ما يؤيد هذا الدرس القرآنى ، فعن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

هذا هو شأن المؤمن ، يعيش فى الحالين مطمئنا راضيا قرير العين ، وقد أنبأنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن هذه القوة، وهذه الطمأنينة ليست لأحد إلا للمؤمن ، لأنه هو الذى يعرف أن لنعمته مصدراً فيشكر ، وأن له فى الشدائد ملجأ فيصبر ، أما غير المؤمن فهو دائما فى اضطراب وتبلبل ، تبطره النعمة ، وتضجره النقمة ، فيعيش ماعاش بين البطر والضجر ، ولذلك كان أمر المؤمن عجباً ، حيث استطاع بإيمانه ويقينه أن يغلب نوازع النفس البشرية ، وأن يتسع صدره للحياة فى نعمائها وضرائها على سواء .

(١) الآيات من ٧ - ٩ من سورة يونس .

وفى هذا المعنى يقول أحكم الحاكمين : ﴿إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين﴾ (١) ، فقد بين الله طبيعة الإنسان إزاء الشر والخير ، واستثنى المصلين ، والصلاة هى صنو الإيمان ، وعماد اليقين والإطمئنان .

(١) الآيات من ١٩ - ٢٢ من سورة المعارج .

تحدثنا فى الفصل السابق عن قوله تعالى : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (١) ، ونتحدث الآن عن قوله تعالى : ﴿وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾ (٢) وذلك كله فى نطاق حديثنا عن « النفس المطمئنة » :

إننا إذا تأملنا هذه الآية الكريمة وجدناها تقرر أن « الإطمئنان » مرتبة بعد « الإيمان » وبتعبير آخر : إن الإنسان قد يكون مؤمنا بربه ، إيمانا لا يعتريه شك ما ، ومع ذلك يتطلب لنفسه منزلة الإطمئنان .

فإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا بالله حق الإيمان ، وتلك قضية مفروغ منها ، لأنه نبى كريم أوحى إليه من ربه ، وهو محطم الأصنام وبانى البيت الحرام ، ولكنه تطلع إلى غاية من شأنها أن تنفى عن هذا الإيمان كل العوامل التى لعلها تحاول أو من شأنها أن تحاول الإرجاف عليه قصدا إلى توهينه أو تحطيمه ، فإيمان إبراهيم أمر

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

وجودى إيجابى كان به يعتقد أن له إلها قادراً هو ربه الذى عرفه بصفاته وآثاره حيث يقول : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ (١)

ولكن هذا الإيمان الوجودى الإيجابى لا يستغنى عن صيانة له ، وعن مدافعة لجميع الواردات التى قد ترد على النفس الإنسانية فى شأنه ، فإن القلوب يعتريها التقلب والتحول ، فإذا دعا ابراهيم ربه أن يريه « كيف » يحيى الموتى ، فإنه يتطلب لونا من ألوان التحصين والتأمين ، حتى ينال الطمأنينة والثقة مما عسى أن يداخله أو يراوده ، ولذلك لم يقل فى دعائه :

رب هل تحيى ، ولكن قال : « كيف تحيى » فإن الأولى سؤال عن أصل القضية ، وهو أمر مفروغ منه متقرر فى نفس ابراهيم ، وفى نفس كل مؤمن ، أما الثانية فهى سؤال عن « كيفية » حصول الشىء ، وذلك فرع الإيمان به ، ومن شأنه أن يقر هذا الإيمان ويزيد فى ثباته .

ومثل ذلك كما لو فرضنا بدويا فى مكان سحيق لم ير فيه

---

(١) الآيات ٧٨ – ٨٢ من سورة الشعراء .

« طيـارة » مـصـنوعـة قط . ولـكـنه سـمـع بـهـا ممن لا يشك فى صدقه ، فـهـو بوجـودها مؤمن ، وبقـدرتهـا على الطيـران واثق ، ولكنه مع ذلك يحب أن ينتـقل إلى منـزلة أخرى هى منزلة من رآها رأى العين ، وعرف كيف تطير ، فإذا تطلب ذلك لم يكن شاكا فى أمرها ، وإنما يكون حريصا على معرفة سرها ، ومعرفة السـر زيادة فى العلم ، وحـصـانة من أى طارىء من طوارىء الشك .

ولذلك نجد الآية الكريمة قائمة على إقرار المرتبتين : مرتبة الإيمان ، ومرتبة الإطمئنان ، فيسأل الله تعالى خليله : ﴿ أو لم تؤمن ؟ ﴾ وهو سؤال العارف بأنه آمن ، وغايته أن يقر صراحة بالإيمان حتى لا يظن ظان أنه شاك فى أصل القضية ، فهو على حد قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ وأمثاله ، ويجيب إبراهيم ربه : ﴿ بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ﴾ ومعناه : بلى إنى لمؤمن ، ولكنى أريد أن أحصن هذا الإيمان ، عما عسى أن يراود الجنان ، فأصل إلى منزلة الإطمئنان .

وهذا الإقـرار للمـرتبـتين توحى به الآية الأولى أيضـا ، فـهى تقـول : ﴿ الذين آمنوا ، وتـطـمئن قلوبهـم بـذكـر الله ﴾ فـتـعطف الإطمئنان على الإيمان وتجمع لهم بين الأمرين .

وهناك آيات أخرى تفيد أن مرتبة الإطمئنان مرتبة يتطلع إليها المؤمنون ، ويجيبهم الله إليها بمنحهم أسبابها ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن إغاثة المؤمنين بالملائكة يوم بدر : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ، إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ [١] . ولنا إلى هذه الآيات عودة لندرسها ونبين ماتدل عليه من رعاية القرآن للمعانى النفسية .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى فى شأن ما طلبه الحواريون من إنزال المائدة : ﴿قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله إنى منزلها عليكم﴾ [٢] ، فقد عللوا طلبهم المائدة برغبتهم فى الوصول إلى منزلة الإطمئنان عن طريق المشاهدة لها والأكل منها ، والوثوق بصدقه عن طريق تصديق الله إياه

(١) الآيات من ٩ - ١١ من سورة الأنفال .
(٢) الآيات من ١١٣ - ١١٥ من سورة المائدة .

بالمعجزة الحسية ، والشهادة على هذه المعجزة عند من لم يرها من الناس ، فأقرهم عيسى على هذا الطلب بأن دعا الله تعالى أن يحققه ، وذلك يتضمن إقرار المعنى الذى ذكرناه ، ثم أقر الله ذلك حيث قال : ﴿إنى منزلها عليكم﴾ ، أى ليتحقق لكم ما رجوتموه من الإطمئنان بعد الإيمان .

* * *

والعبرة التى نفيدها من هذا كله أن القرآن الكريم واقعى فى شأن النفوس وتربيتها وأنه تنزيل الحكيم الحميد الذى يعلم أن الإنسان ولو كان مؤمنا ، هو معرض لكثير من الخواطر والوساوس، ومايداخل النفوس وأن إيمانه ماهو إلا مركز يتركز فيه ، ويجب أن يحاط دائما بما يدرأ عنه الغوائل ، ويدفع العدو المهاجم ، ولذلك نرى القرآن الكريم يتخول الناس حينا بعد حين بالآيات الكونية ، ويلفتهم إلى كثير من أسرار هذا العالم ويرد على ماقد يثيره بعضهم ، أو يثور لديه ، من شبه ، وهكذا فالغاية من ذلك كله هو حياطة إيمان المؤمنين ، وتجديد مادة غذائهم حتى لا يصاب إيمانهم بمثل ما تصاب به الأجسام حين يعوزها الغذاء فتضعف هى ، ثم تضعف مقاومتها تبعا لضعفها ، فتهاجمها العلل والأمراض فتجدها سهلة متقبلة لها .

ومن العبر فى ذلك أيضا أن يعلم أهل العلم والدين أن الله تعالى يأذن لعباده ، ولو كانوا أنبياء كإبراهيم ، أو أصحاب أنبياء كالحواريين أن يتطلبوا مايثبت به إيمانهم ، وأن يعينوهم بالرفق على تحقيق هذه الغاية ، فرب مؤمن يتحير فى بعض القضايا أو يحتاج إلى كشف بعض الغوامض ، فإذا استقبلناه استقبالا قائما على الرحمة والتماس المعذرة له ، ومعاونته على الوصول إلى الراحة والإطمئنان النفسى ، فإننا نكون قد أخذنا بيده إلى طريق الخير ، أما إذا نهرناه وخوفناه وأرجفنا عليه ، وظننا به السوء ، فإننا لا نفيد من ذلك إلا زيادة العقدة فى نفسه استحكاما .

* * *

ونرجع مرة أخرى إلى ماطلبه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من مشاهدة كيف يحيى الله الموتى ، فنقول :

إن جمهور المفسرين يرون أن إبراهيم نفذ ذلك فجمع طيورا أربعة وذبحها وقطع أجسامها ، ووزعها على أربعة جبال ، ثم دعاها فجاءته تسعى كما كانت قبل الذبح ، وبذلك أراه الله ماطلب رأى العين .

وهذا الرأى يرد عليه اعتراضات كثيرة :

منها أن هذه الرؤية لإحياء الله الموتى كان يمكن تحققها

بواحد فقط فلم كانت الطيور أربعة ؟ ومنها أن ﴿ صرهن ﴾ بمعنى « أملهن » وأما التقطيع والذبح فليس فى الكلام مايدل عليه ، ولو كان المراد بقوله : ﴿ صرهن ﴾ قطعهن ، لم يقل إليك ، فإن ذلك لا يتعدى بالى ، ومنها أن الضمير فى قوله :﴿ ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ عائد إلى الطيور لا إلى أجزائها ، ومنها من جهة المعنى أن رؤية إبراهيم للطير عائدة من الجبال ليست تحقيقا لما سأله من أن يريه « الكيفية » وإنما أراه الطيور حية ، وبين الأمرين فرق .

ولذلك يميل أبو مسلم الأصفهانى إلى أن المعنى : خذ أربعة من الطير فضمها إليك وعودها الأنس بك - على الشأن فى تدريب الطير والحيوان وتأليفها - ثم اجعل على كل جبل من هذه الطيور جزءا ، أى واحدا من أربعتها ، ثم ادعها ، فإنها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك ، فكذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى ، فإنها تسرع إلى دعوته طوعا : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون ﴾[١] .

وعلى رأى أبى مسلم لا يكون هناك ذبح ولا تقطيع ولا إماتة ولا إحياء ، بل لعل إبراهيم لم يأخذ طيورا حية ، ولم يجعلها على جبال أربعة ، ولم يدعها ، فإن أبا مسلم يقول :

(١) الآية ٨٣ من سورة يس .

« ليس فى الكلام مايدل على أنه فعل ذلك ، وماكل أمر يقصد به الامتثال ، فإن من الخبر مايأتى بصيغة الأمر لا سيما إذا أريد زيادة البيان » كما إذا سألك سائل كيف تصنع الحبر مثلا فتقول : خذ كذا وكذا وافعل به كذا ، يكن حبرا - تريد هذه كيفيته ، ولا تعنى تكليفه صنع الحبر بالفعل [١] .

وعلى هذا أيضا يكون السبب فى جعل الطيور أربعا ، والجبال أربعا ، أن المراد أن الله يحيى الموتى ويجمعهم من جميع الجهات ، ولما كانت الجهات الأصلية أربعا ، بنى التمثيل على ذلك ،وكأنه تعالى يقول لنبيه إبراهيم : أرأيت لو أنك ألفت إليك أربعة من الطير حتى صارت تأنس بك وتميل إليك ، ثم فرقتها فجعلت كل واحد منها على جبل من جبال أربع ثم دعوتها إليك ، ألا تراها لالفها بك ، وتجاوبها معك تأتيك ساعية بمجرد الدعوة ، فكذلك أمرى فى سرعة تلبية الموتى لما أدعوهم إليه من العودة إلى الحياة ، فهو تمثيل للسرعة والمطاوعة وتجاوب النفوس وانجذابها إلى الله ، لأنها من روحه ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ [٢] ، ولأنها متجهة نحوه صائرة إليه ، كما تتجه هذه الطيور إلى من تألفها وضمها : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ [٣] .

---

(١) راجع تفسير المنار، وتفسير الإمام الرازى، فى هذه الآية .
(٢) الآية ٢٩ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٦ من سورة الانشقاق .

وإذن فإبراهيم لم يطلب أن يرى بعينيه كيفية الإحياء ومراحل التكوين لأن هذا شأن لايرى بالعين ، ولكن ترى آثاره ، فالعين لا ترى التكوين ، ولكن ترى ماتكون ، وإنما طلب إبراهيم أن يعلم على أى وجه من السرعة والتلبية والتجاوب يكون الإحياء ، وهذا هو الذى أراه الله إياه ، إذ ضرب له مثلا من الطير والجبال .

والغاية من شرحنا لهذا الجانب الخلافى من الآية ، هو بيان ماتضمنه من أن العلماء قد جالوا بأفكارهم فى ميدان فسيح ، وأن أمثال هذه القضايا الواردة فى كتاب الله تعالى ، يمكن أن تفهم على هذا الوجه من التمثيل ، كما يمكن أن تفهم على وجه الحقيقة ، ولكل وجهة هو موليها ، فمن كان قلبه مستريحا إلى هذا الوجه أخذ به ، ومن كان قلبه مستريحا إلى الوجه الآخر أخذ به ، وهذا سر من أسرار عظمة القرآن ، حيث أنزل بأسلوب يصلح لكل من العامة والخاصة ، ويستريح إليه صاحب الفطرة، كما يستريح إليه صاحب الفلسفة .

بينا فيما سبق أن الطمأنينة منزلة عليا من المنازل التى تترتب على الإيمان .

والآن نبين مبعث الطمأنينة التى بها تكون النفس مطمئنة ، ومن تأمل كتاب الله تعالى وجده يرمى إلى هدفين عظيمين بهما تتحقق الطمأنينة للنفس :

أحدهما الطمأنينة بالعرفان .

والآخر الطمأنينة بالإحسان .

أما الطمأنينة بالعرفان فإنها هدف القرآن من كل مايذكره عن الله ووحدانيته وصفات جلاله وجماله ، وبديع قدرته ، ودقيق صنعه ، ومظاهر تقديره وتدبيره .

إنه يريد بذلك أن يغرس فى نفس الإنسان بذرة الحقيقة الكبرى ، وهى أن الله تعالى هو مصدر هذا الكون ، ومرجع كل مافيه ، وأن بيده مقاليد السموات والأرض ، علما ، وتدبيرا ، وتصريفا ، وأن مثل الفضيلة والكمال مستمدة من أسمائه الحسنى .

يطمئن الإنسان إلى أن ربه هو الخلاق العظيم ، حين يلتفت إلى مظاهر هذه الخالقية المبدعة فى عالم الحيوان ، وفى عالم النبات ، وفى عالم البحار ، وفى عالم الجبال ، وفى عالم الكواكب ، وفيما للأشياء من خواص ، وما أودعت من قوى ، ولذلك يقول له القرآن الكريم :

﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ،

ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ (١) .

ويطمئن الإنسان إلى أن ربه هو المدبر الحكيم ، حين يرى تصاريف هذا الكون ، ومواضع لكل شىء فيه من سنن ونواميس لاتتحول ولا تتبدل ، ولذلك يقول له القرآن الكريم :

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ ، ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب وماخلق ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٢) ، ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ﴾ (٣) ، ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ (٤) ، ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت

(١) الآيات من ٣ – ١٧ من سورة النحل .
(٢) الآية ٣ ثم الآية ٥ من سورة يونس .
(٣) الآية ٢٢ من سورة يونس .
(٤) الآيتين ٣٢ و٣٣ من سورة الشورى .

ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ (١) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى نراها فى كتاب الله تعالى مذكرة مبصرة ، ونراها فى كثير من الأحيان مذيلة بما يدل على الغاية منها ، حيث تقول : ﴿إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ ، ﴿لقوم يعقلون﴾ ، ﴿لقوم يذكرون﴾ ، ﴿أفلا تذكرون﴾ ، ﴿أفلا تتقون﴾ ، ﴿فأنى تصرفون﴾ ، فهى توجيهات إلى التفكر ، والتعقل ، والتذكر ، والتقوى والتثبت ، وكلها سبل مفضية بصاحبها إلى معرفة الحقيقة فى شأن الإله ، والإطمئنان بهذه المعرفة إلى أنه هو كل شىء ، وأن جميع ماسواه قائم به ، محتاج إليه .

ويطمئن الإنسان إلى الفضيلة والمثل الرفيعة ، حين يرى القرآن الكريم يصف الله تعالى بأوصاف الكمال الممثلة لجلاله وجماله ، فهو « العليم ، الحكيم ، السميع ، البصير ، الرحمن ، الرحيم ، القوى ، القدير ، القابض ، الباسط ، الصبور ، الشكور ، الملك ،

---

(١) الآيتين ٣١ و ٣٢ من سورة يونس .

القـدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور » إلى غير ذلك من أسمائه جل وعلا ، وكل منها ينبوع لمعناه ، ومثل أعلى لمن احتذاه .

بيان ذلك : أن العلم مثلا صفة من صفات الله تعالى ، فهى صفة من صفات الكمال ، وعرفان هذه الحقيقة له توجيهان للإنسان : توجيه إلى الله يفيد منه الإنسان طمأنينة إليه جل شأنه ، وثقة به ، حيث يوقن بأن الله تعالى مطلع على كل شيء كما يستعيذ به خوفا أو حياء منه ، ومصداق هذا وذاك مثل قوله تعالى : ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾(١) ، ﴿وكفى بالله حسيبا﴾(٢) ، ﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾(٣) ، ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾(٤) ، ﴿إن الله لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء﴾(٥) إلى غير ذلك .. والتوجيه الآخر هو توجيه إلى التكمل بالعلم والمعرفة ، لأن المؤمن محب لله ، أى منجذب إلى صفاته ، متخلق بأخلاقه ، فكلما أفاد علما أفاد كمالا ، وازداد من الله قرباً .

(١) من الآية ١ من سورة النساء .
(٢) من الآية ٦ من سورة النساء .
(٣) من الآية ٨٥ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٤ من سورة الفجر .
(٥) الآية ٥ من سورة آل عمران .

وقل مثل ذلك فى صفة الرحمة الإلهية ، فلها توجيه إلى الله ينشأ عنه الحب ، ولها توجيه إلى التراحم بين الناس : «الراحمون يرحمهم الرحمن» .

وكذلك صفة العزة ، فكما أن العزة صفة لله ، هى أيضا صفة لرسوله وللمؤمنين، والعزة المحمودة هى العزة بالحق ، وهى التى يتمثلها المؤمن صفة من صفات الجلال فى الله ، ويحتذيها بالنزول على أمر الله، والترفع عن كل ماينهى الله عنه ، أما العزة بالإثم فهى عزة الكافرين أو المفسدين : ﴿بل الذين كفروا فى عزة وشقاق﴾[1] ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ [2] .

وهكذا كلما درسنا صفة يتضمنها اسم من أسماء الله الحسنى ، وجدناها مثلا أعلى فى معناها ، ووجدنا لها إيحاءً

(١) الآية ٢ من سورة ص .
(٢) الآيات من ٢٠٤ – ٢٠٦ من سورة البقرة .

بالطمأنينة إلى الله ، وإيحاء بتمثل كمال فى الله ، وكلاهما للمؤمن ثبات وتثبيت .

هذا كله في شأن طمأنينة العرفان ، أى الطمأنينة الناشئة عن العلم ، وحصول اليقين فى القلب ، ولا شك أن أعلى مراتب العلم هى العلم بالله ، فلابد أن تكون أعلى مراتب الطمأنينة هى الطمأنينة إلى الله ، ممن عرف الله .

* * *

وأما الطمأنينة بالإحسان ، فنقصد بها الطمأنينة بالطاعة ، فإن العقيدة وإن بعثت الثقة فيمن يعتقد ، لابد من العمل بمقتضاها حتى تستريح النفس إلى أنها قامت بحق من تعتقده ، ولم تخرج عليه بفسق عنه ، أو عصيان له ، مع الإصرار عن غفلة أو استكبار .

إن العصاة – وإن استمرءوا العصيان ، وركنوا إلى أساليب اقتراف الذنوب – يكونون عادة في قلق واضطراب نفسى شديد ، وتكون قلوبهم ممتلئة بالمخاوف ، مشحونة بأسباب الإنزعاج ، أما العامل فإنه يجد للطاعة لذة ، فإذا أذنب ثم تاب وجد للتوبة لذة ، فهى خيوط تربطه بربه ، وكلما كثرت هذه الخيوط كان بها مستمسكا بما يعصمه فيطمئن قلبه .

والقرآن الكريم كما يوجه النفوس إلى مايبعث فيها طمأنينة العرفان ، يوجه النفوس أيضا إلى مايبعث فيها طمأنينة الإحسان .

إن جميع أوامره ونواهيه لها هدف واحد ، هو الوصول بالنفوس إلى أن تكون نفوسا زاكية مطهرة .

يقول الله تعالى : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ (١) .

وتزكية الإنسان نفسه هي تنميتها ، لأن الزكاة في الأصل هي النمو ، كما يقال زكا الزرع إذا نما وبورك فيه ، وإنما تكون تنمية النفس بالأفعال وصالح الأعمال فتلك هي التزكية المقبولة عند الله ، التي يترتب عليها هذا الفلاح المذكور في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ (٢) أما التزكية بمجرد القول فخرا وتطولا ، فهي تزكية مذمومة منهي عنها ، وفي ذلك يقول الله جل شأنه : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكي من يشاء ﴾ (٣) ، ويقول سبحانه : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (٤) .

---

(١) الآيات من ٧ - ١٠ من سورة الشمس .
(٢) الآية ١٤ من سورة الأعلى .
(٣) الآية ٤٩ من سورة النساء .
(٤) الآية ٣٢ من سورة النجم .

وقد قابل الله تعالى بين التزكية والتدسية حيث يقول : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ وأصله دسسها في المعاصي ، فأبدل من إحدى السينين ياء ، نحو : تظنيت ، وأصله تظننت [١] .

قال ابن قتيبة : يريد قد أفلح من زكي نفسه أي أنماها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف ، وقد خاب من دساها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي ، والفاجر أبدا خفي المكان ، زمن المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس ، فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها ، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها ، وكانت أجواد العرب تنزل الربى وبقاع الأرض لتشهر أماكنها للمعتفين - أي طالبي المعروف - وتوقد النيران للطارقين ، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام ، لتخفي أماكنها على الطالبين ، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها ، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها [٢] .

وقد أمر الله نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل : هل لك إلى أن تزكى ﴾ [٣] أي تعمل

(١) مفردات الراغب الأصفهاني - مادة (دسى) .
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ص ٢٩ طبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٢٠ م .
(٣) الآية ١٨ من سورة النازعات .

بطاعة الله فتصير زاكيا ، وفى القرآن الكريم : ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ (١) ، ﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ﴾ (٢) ، ﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى ﴾ (٣) .

ولا شك أن هذه كلها أخبار صادقة وثيقة ، لأنها عن الله تعالى ، فمن شأن المؤمن أن يطمئن إلى ماترتبه على الإحسان والطاعة من جزاء ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (٤) .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى دعائه : « رب أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » .

---

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٢) الآيات من ١٧ - ٢٠ من سورة الليل .
(٣) الآية ٧٥ من سورة طه .
(٤) الآية ٦٠ من سورة الرحمن .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [1].

اتصل البحث فى هذه الآيات الكريمة بنواح مختلفة : فمن الناس من بحثها من ناحية دلالتها على الفرق بين « الرسالة » و « النبوة » حيث عطف الله تعالى قوله : « ولا نبى » على قوله : « من رسول » والعطف يقتضى المغايرة ، ومنهم من بحثها من ناحية سبب النزول

---

(١) الآيات من ٥٢ ـ ٥٥ من سورة الحج .

الذى جاءت به روايات مرسلة لم ترو من طريق متصل صحيح ، وقد ذكروا هنا الفرية المشهورة التى تزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أدخل عليه الشيطان كلاما فى تمجيد الأوثان فقرأه مع القرآن - وحاشاه وقد عصمه الله - ، ومنهم من بحثها من ناحية قدرة الشيطان على الإضلال ومدى هذه القدرة .

ولا نكاد نجد من المفسرين من اهتم بأمر التقسيم الإلهى للقلوب، الذى أتى به القرآن الكريم فى هذه الآيات ، وتجلية مايشتمل عليه من دراسة للنفس الإنسانية .

ولما كنا قد بينا فى الفصل السابق أن مبعث الطمأنينة التى بها تكون النفس مطمئنة إنما يرجع إلى « العرفان » و « الإحسان »، فلابد لنا من دراسة هذا التقسيم القرآنى الذى هو الأساس الأول فيما ذهبنا إليه .

* * *

إننا نجد هذه الآيات الكريمة تذكر أنواعا ثلاثة من القلوب التى توجه إليها دعوات الحق والهدى عن طريق الرسالات والنبوات ، لا فرق في ذلك بين الرسالة المحمدية وماقبلها ، ويختلف موقفها من هذه الدعوة باختلاف طابعها أو طبيعتها ، وهذه القلوب الثلاثة هى :

١ – القلوب المريضة .

٢ – القلوب القاسية .

٣ – القلوب المخبتة .

فالقلوب المخبتة أى المطمئنة إلى الحق ، الخاضعة له ، العاملة بمقتضاه يقابلها أولا : القلوب المريضة ، وهى التى أصيبت بعلة جعلتها مختلة الإدراك ، كما يصاب الإنسان بالمرض فيخيل إليه مرارة الحلو إذا ذاقه ، أو يخيل إليه أن الواحد اثنان إذا نظر إليه ، أو أن الصوت المطرب صوت مزعج إذا استمع إليه ، إلى غير ذلك من مظاهر الاعتلال والاختلال، ويقابلها ثانيا : القلوب القاسية، وهى الميتة المتحجرة التى انقطع الأمل من شفائها ، وعودة قوة الإدراك إليها ، كما ينقطع الأمل من الأجسام الميتة .

وقد بين الله تعالى أن إخبات القلوب مرتبة يتوصل إليها بالعلم بالشىء فى ذاته ، والعلم بأنه من مصدر مقدس ، حيث يقول جل شأنه : ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم﴾[١] .

فالإخبات للحق ثمرة من ثمرات العلم بأنه حق ، وبأنه صادر من الله ، وفى هذا إشارة إلى أن الإنسان قد يتقبل الحق إذا أدركه وتبين

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الحج .

أمره فى ذاته ، ولكنه إنما يخضع له على سبيل الاخبات والقنوت (١) إذا أيقن بأن مصدره هو المصدر الموثوق به ، الواجب الاحترام .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الذين فى قلوبهم مرض فى مواضع عدة : فمنهم من يرجع مرض قلبه إلى النفاق والرغبة فى إرضاء فريقين ، وهؤلاء هم الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ (٢) ، ومنهم المريض بداء الجبن لا يرى بأسا من أن يجامل على حساب الحق ضمانا لمستقبل يتوهمه ، وهؤلاء هم الذين يقول الله عز وجل فيهم : ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين﴾ (٣) ومن هؤلاء أيضا المذكورون فى قوله تعالى : ﴿إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم﴾ (٤)

(١) كل من «الإخبات» و«القنوت» هو لزوم الطاعة مع الخضوع والخشوع فى صدق وإخلاص ...
(٢) الآيات من ٨ - ١٠ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٥٢ من سورة المائدة .
(٤) الآية ٤٩ من سورة الأنفال .

ومنهم المريض بداء الشهوة والتسقط لكل مايشبعها ولو كان من طريق حرام ، وهؤلاء هم الذين حذر الله منهم نساء النبىّ حيث يقول : ﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا﴾ [١] فالمرض هنا هو مرض الفسق والفجور ، وقد حذر الله النساء من أن يتحدثن بما من شأنه أن يطمع هؤلاء فيهن من كلام يقلنه ، أو طريقة يلقين بها هذا الكلام ، وهى طريقة التكسر فى الحديث ، والليان فى المنطق ، فإن فى ذلك إغراء وإطماعا لمرضى القلوب ، ولا يعنى هذا أن تلجأ المرأة إلى طريقة التخشين فى نوع ما يقال أو فى هيئة توجيهه ، لأن الله يقول : ﴿وقلن قولا معروفا﴾ ، والقول المعروف من المرأة هو القول الذى تجرى العادة به من الحرائر المهذبات الصالحات ، فى خفر وحياء ، لا فى دعاء ونداء ، وشتان بين المتحدثة فى رقة وأدب ، والمتحدثة فى خلاعة واجتراء وتهتك فى الكلام .

ومنهم المريض بداء الشك والحيرة ، وهؤلاء هم الذين يقول الله عز وجل فيهم : ﴿وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ [٢] ، وضمير الفاعل

(١) الآية ٣٢ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ١٢٥ من سورة التوبة .

فى قوله : « فزادتهم » يرجع إلى السورة فى قوله تعالى قبل ذلك : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ (١) ، غير أن الآية السابقة تصور الشاكين ، وهذه الآية تصور المشككين .

وبهذا كله يتبين أن مرض القلوب ، وأن تنوع منه مايرجع إلى الرذائل والشهوات ، ومنه مايرجع إلى الشكوك والشبهات ، وكل ذلك قد استوفاه القرآن الكريم ذكراً وبياناً ، وتفريغاً وتمثيلاً .

وكما ذكر القرآن الكريم مرضى القلوب فى عدة مواضع ، ذكر القسوة والقساة فى مواضع أخرى ، فمن ذلك ماوصف الله به بنى إسرائيل حيث يقول بعد أن قص معجزة من المعجزات التى أيد بها نبيهم ، فلم يؤمنوا بها : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (٢)

---

(١) الآية ٣١ من سورة المدثر .
(٢) الآية ٧٤ من سورة البقرة .

وقد أجمعت الدراسات النفسية للشعوب على أن اليهود يمتازون بنوع من العناد والتحجر والقسوة القلبية عن قبول الحق ، وعن الموعظة، ولاعجب فهم الذين يقول الله عز وجل فيهم : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ﴾ (١) ، ولعلهم – بل – إنهم – لهم أيضا الذين حذر الله المؤمنين من أن يكونوا مثلهم حيث يقول : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، ومانزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ﴾ (٢) .

وينبغى أن نلتفت هنا إلى موازنة هذه الآية بين المؤمنين الذين تناشدهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، والذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، فإن فى ذلك إفادة لمعنى التقابل بين خشوع القلوب وإخباتها ، وقسوة القلوب وتحجرها .

---

(١) الآية ١٣ من سورة المائدة .
(٢) الآية ١٦ من سورة الحديد .

وإن هذه المقابلة لتبدو على أتم ماتكون وضوحا فى قوله تعالى : ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين﴾ [١] .

* * *

والخلاصة : أن الآيات الكريمة التى صدرنا بها هذا الفصل توازن موازنة نفسية دراسية بين أنواع القلوب التى يعرض عليها الحق وتدعى إليه ، وأنها تجعل إخبات القلب أى خشوعه وخضوعه فى صدق وإخلاص ثمرة من ثمرات العلم والإدراك ، وترجع الشك والعصيان إلى مايقابل ذلك من خلل يصيب الإدراك كما تصاب الحاسة المريضة ، أو انطماس تام للحقيقة أمام القلب القاسى المتحجر ، أو الميت الذى لم يعد فيه أى أمل فى التعقل والتجاوب .

ولذلك نستطيع – كما قلنا من قبل : أن الإطمئنان ينبعث عن العرفان والإحسان – أن نقول الآن : إن القلق والتزلزل والجحود والعصيان إنما تنبعث عن خلل يصيب القلوب ، قد يصل بها إلى أن تفقد خاصتها من الإدراك السليم ، والتوجيه إلى الصراط المستقيم .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الزمر .

ومن السهل بعد هذه الدراسة أن ندرك أن هذه الآيات الكريمة فى واد ، ومازعموه من سبب لنزولها في واد آخر ، فليس هناك زيادة من الرسول على القرآن ، ولا تمجيد كالذى زعموه للغرانيق أو الأوثان ، إنما يريد الله تعالى أن يلفت رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلى سنة من سننه الإلهية فى نفوس خلقه أمام دعوات الحق ، ورسالات الإصلاح ، فهو يقول :

لقد جرت سنتنا فى هذا الشأن من شئون البشر أن نوحى إلى الأنبياء والرسل بالحق ، وأن نبعث منهم إلى الناس هداة مصلحين ، فيكون لكل منهم بذلك رسالة وأمنية يتمناها ويتعلق قلبه بتحققها وتمامها ، ولكن الشيطان الذى هو عدو الناس الأكبر ، والداعية الذى قضينا بإبقائه وإنظاره إلى يوم يبعثون ، ليتحقق التكليف والاختبار – لا يترك هذه الأمنية تتحقق فى يسر ، بل يلقى فى سبيلها العراقيل ، وينصب للناس من دونها الأحابيل ، فيكون لذلك بحسب سنتنا آثار عدة :

فأما أثر ذلك فى عاقبة الحق والباطل ، ﴿فينسخ الله مايلقى الشيطان﴾ ، أى يزيله ويبطله بتبيين فساده ، وكشف عواره ، ثم

يحكم الله آياته، أى تمر فترة هى فترة البيان والكشف ووصول الناس بالتفكر والتدبر إلى إدراك الزيف الذى ألقى به الشيطان ، فيعصم الله بذلك ما أنزله من الحق والهدى والله عليم بما يلقيه الشيطان من العراقيل والصعاب ، حكيم يعرف كيف يزيله ويعصم آياته .

وأما أثر ذلك فى الإختبار والإبتلاء ، فأن يتصارع الحق والباطل أمام القلوب والأفكار ، فتفتتن بالباطل قلوب مريضة أو قاسية ، ويعرف الحق أهل العلم معرفة آتية من قبل ملاحظة هذه المعركة الحامية ، وتبين عناصرها ومافيها من عبر ، فيؤمنوا به ، وتخشع له قلوبهم خشوعا صادقا لأنه عن مكابدة وتجربة وملاحظة .

وأما أثر ذلك فى المختبرين ، فالهداية إلى الصراط المستقيم للمؤمنين ، وحياة الشك والمرية للكافرين : ﴿وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ، ولايزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ (١).

---

(١) الآيتين ٥٤ – ٥٥ من سورة الحج .

فى بعض مايروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال :« أصدق الأسماء حارث وهمام » .

قالوا : والحارث الكاسب العامل ، والهمام المريد القاصد .

يريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الإنسان بمقتضى فطرته لا ينفك عن أن يكون مريدا ، لأنه حى له استمساك بحياته وتجاوب معها ، ولابد له تبعا لذلك من أن يكون ذا مراد يسعى إليه ، ويعمل على تحقيقه ، فإذا سمى إنسان باسم « الحارث » أو باسم « الهمام » فقد طابقت هذه التسمية وصفا حقيقيا فطريا فى الإنسان ، فيكون قد سمى بما فيه حقا وصدقا .

ومن هذا القول النبوى الكريم ، ينبع أصل نفسى تربوى عظيم ، التفت إليه علماء النفس والتربية أخيراً ، ذلك هو أن الإنسان مادام حيا فلابد له من إرادة وعمل – إرادة ما ، وعمل ما – فإذا لم تتجه نفسه إلى الحق ، اتجه إلى الباطل ، وإذا لم تشتغل نفسه بعمل الخير ، انحدر إلى عمل الشر ، فلا واسطة، لأن الواسطة هى فراغ النفس ، وتعطل

صفات الفطرة . والغرض أن الحى « حارث » بفطرته ، أى عامل كاسب ، و« همام » بفطرته ، أى مريد قاصد .

ولما كان فراغ النفوس محالا ، حرص علماء النفس وحذاق المربين على أن يشغلوا الشباب بالأعمال الهادفة ، وألا يتركوهم ينحدرون بحكم هذه الفطرة إلى الأعمال الهازلة أو التافهة أو الفاسدة ، كما حرصوا على أن يملأوا القلوب بالعقائد الصحيحة ، والمبادىء السليمة، والمثل القويمة ، لئلا يندفعوا إلى مايناقض ذلك ، فإن الذى لا يؤمن لابد أن يجحد ، والذى لا يمتلىء قلبه بالفضيلة لا يلبث أن يقع فى مهاوى الرذيلة ، والذى لا يسير فى الطريق المستقيم ، لابد أن يسير فى طريق الضلال أو الفساد .

ومن هنا نشأت فكرة اتخاذ الأندية لتنظيم لهو برىء للشباب ، ونشأت فكرة تعليم الرياضة وشغل ذوى الأجسام الصحيحة بها لكى لا يستغلوا فراهة أجسامهم ، وصحة أبدانهم فيما يعود عليهم أو على المجتمع بالشر والفساد . ونشأت تبعاً لذلك فى المدارس والجامعات وجوه النشاط الجماعى، ونشأت فى المجتمعات فكرة التعاون والترغيب فى عمل الخير ، لئلا يتجه فائض الأغنياء إلى مصارف أخرى ترضى الشيطان .

ومن هنا أيضاً يرى الحذاق من أرباب القيادة والتوجيه أن يغرسوا فى النفوس بذور الإيمان بدعواتهم ، والثقة بنزاهة أغراضهم وأعمالهم ، وبأنهم على صراط مستقيم ، لكى لايدرك النفوس فراغ منهم ، فتقصد إلى ملء هذا الفراغ بغيرهم ، وإلى التماس الزاد القلبى الإنسانى من دعوة غير دعوتهم ، وفكرة غير فكرتهم .

كل هذا توحى به إشارة الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى أن الإنسان « حارث همام » .

وفى القرآن الكريم آيات يفهم منها هذا النظر الذى نظرناه :

فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون﴾ (١) ، وذلك واضح فى أنه لاواسطة ، وأن من انصرف عن الحق عامداً أو غير عامد ، فقد وقع فى الضلال معذوراً أو غير معذور .

ويوضحه قوله تعالى فى سورة الحمد : ﴿اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ (٢) .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة يونس .

(٢) الآيتين ٦ و ٧ من سورة الفاتحة .

فالصراط المستقيم واحد خصص أولا « بأل » التى للتعريف والعهد ، ثم خصص بالنعت الكاشف الموضح عن طريق إثبات أنه هو صراط المنعم عليهم ، ونفى أن يكون هو صراط المعاندين الذين حادوا عن الحق عمداً ، أو الضالين الذين انحرفوا عنه جهلاً .

وإذن فمن ترك الصراط المستقيم ، فقد حاد عنه إلى صراط الجاهلين ، أو صراط المعاندين .

ويقول الله جل شأنه : ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ، فهو له قرين﴾ (١) .

وقد جاءت هذه الآية بأسلوب الشرط والجزاء ، وهما كالمقدمة والنتيجة ، والمعنى الذى نريد أن نلفت إليه هو أن الله تعالى يقابل بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والصلاح والفساد ، على هذا النحو من الإيجاز مقابلة يفهم منها كل ذى عقل سليم أنه لا واسطة ولا فراغ ، فالإنسان إما فى هذا الجانب أو ذاك .

هذا هو المعنى النفسى التربوى الذى يقرره القرآن الكريم ويبنى عليه ، وتنبىء عنه السنة وتومىء إليه ، وإن كان يعد جديداً عند الذين يغفلون عما عندنا ، وتنخطف أبصارهم لما يرد علينا من غيرنا .

(١) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .

وللقرآن الكريم فى الإنتفاع بهذه الفطرة التى تهدى إليها دراسة النفس الإنسانية ، نهج مرسوم ، والسنة مقفية على أثره .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾ (١) ، فإن الله تعالى يأمر رسوله بأن يصبر ويسبح بحمده فى أول النهار وفى آخره ، ومن آناء الليل ، وفى أطراف النهار ، أى أنه يدعوه إلى أن يكون ذاكرا ربه ، مسبحا بحمده فى غالب أوقاته ، لا يغفل عن ذلك ، لكى لا يترك الفرصة لشواغل النهار المادية ، أو لوساوس الليل الشيطانية ، فى أن تنشد فراغا من قلبه فتملأه وتسيطر عليه .

فالآية تجعل الصبر والتسبيح بحمد الله ، أى استشعار عظمته وجلاله ، واعتقاد إيثاره على جميع ماسواه ، هما الحصانة من التأثر بقالة السوء ، يلقى بها الأعداء تثبيطا للمصلحين ، وإرجافا عليهم ، وترشد إلى أن هذا هو السبيل المرجو إلى رضا النفس ، واطمئنان القلب .

---

(١) الآية ١٣٠ من سورة طه .

فإذا قال قائل : كيف يتصور أن يظل الإنسان طول نهاره، ومن آناء ليله ذاكرا مسبحا ، قلنا : إن الذكر والتسبيح لا يراد بهما عمل اللسان فحسب ، ولكن يراد بهما ذكر القلب وتسبيح القلب ، والمرء قادر على أن يجعل عمله حين يعمل ، ونشاطه حين ينشط ، وسكونه حين يسكن ، ذكراً لله ، وتسبيحاً لله ، إذا قصد بكل ذلك السير على الصراط المستقيم، واتباع سبيل المؤمنين ، وبذلك يمتلىء قلبه بالله ، فلا يجد الشيطان منه فراغا ينفذ إليه .

وقريب من هذا قوله تعالى :

﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين﴾ (١) .

فليست الصلاة هى تلك المعروفة فقط ، ولكن كل تفكير فى الله صلاة ، وكل اتجاه إلى الله صلاة ، وقوله تعالى : ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ تعبير شامل للمعنى الذى ذكرناه ، وهو أن الحسنة تطرد السيئة ، لأنها تحتل مكانها ، وتدفعها عنه ، وقوله جل شأنه : ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ ، تنبيه على أن المراد بذلك هو إصلاح النفس البشرية عن طريق تذكيرها بالله

(١) الآية ١١٤ من سورة هود .

والعمل الصالح لتستحضره أبدا ، ولا تنفلت عنه فينزغها من الشيطان نزغ .

ويوضح ذلك قوله تعالى ، معلما رسوله كيف يتقى نزغ الشيطان : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم﴾ (١) .

يقول له : سر فى طريقك ، وألزم مثلك ، ولا تعبأ بالجاهلين جهل سفاهة أو جهل عماية ، وإذا راودتك الوساوس الشيطانية التى من شأنها أن تعترى البشر ،فاذكر ربك واجعله حصنك ومعاذك ، إنه تعالى سميع لمن يستعيذ به ، عليم بذات نفسه .

وبعد هذا يذكر الله عز وجل هذا المبدأ مقارنا فى شأنه بين المتقين وإخوان الشياطين فيقول : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون﴾ (٢) .

فنعلم أن الذكرى تنفع المؤمنين ، وأن الاسترسال فى العصيان بعد العصيان إنما هو مد من الشيطان .

---

(١) الآيتين ١٩٩ و ٢٠٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتين ٢٠١ و ٢٠٢ من سورة الأعراف .

وهذا هو السر فى أن القرآن يذكر ، ويضرب الأمثال ، ويصرف الآيات ، وينتهز كل فرصة تواتيه ليجتذب القلوب ، ويسترعى الأنظار، لأنه دعوة واعية بصيرة ، تعرف أن القلوب إذا لم تشغل بها شغلت بغيرها ، فإن الفراغ محال .

* * *

والسنة المطهرة تقفى على أثر هذا النهج ، فمما أثر من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تفكروا فى ذات الله ، ولكن فكروا فى صفاته » .

إن رسول الله يعلم أنه لابد للإنسان من التفكير فى الإله ، ويعلم أن ذاته لا تدرك ، كما قال فى كتابه الكريم : ﴿لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير﴾ [(١)] ، وإذن فلن ينال من يفكر فى الذات إلا الحيرة والاضطراب ، فلذلك صرف عن التفكير فيها إلى التفكير فى صفاتها ، والمراد آثار الصفات لا حقائقها أيضا خلافا لما يتخبط فيه كثير من المتفلسفين وأهل الكلام ، وذلك مايرشد إليه القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : ﴿الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه

(١) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شيء قدير﴾ [١] .

ومما أثر من السنة أيضا فى ذلك مارواه خالد بن الوليد رضى الله عنه من أنه أصابه أرق فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن نمت ؟ قل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جارا من شر خلقك أجمعين ، أن يفرط على أحد منهم أو يطغى : عز جارك ، وتبارك اسمك » .

لماذا أرق خالد ؟ لابد أن يكون قد أدركه تفكير ما أقض مضجعه ، ولابد أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قد عرف لون هذا التفكير أو لمحة فراسة مما يعرفه من أحوال خالد ، لذلك أرشده إلى دعاء خاص فيه توجيه إلى فكره عن الله وقدرته وعظمته ، وخضوع كل شيء لجلاله وربوبيته ، ثم عن جوار الله

---

(١) الآيات من ٤٨ – ٥٠ من سورة الروم .

وحصانته ، فإذا استبدل خالد بالتفكير الذى كان يؤرقه هذا التفكير ، فلا شك أنه يطمئن قلبا ، ويسرى إليه سكون الإيمان فينام آمنا مطمئنا .

فانظر كيف أدرك الرسول بثاقب بصره أن التفكير المقلق لا يطرده إلا التفكير المطمئن ، فلم يقل لخالد : أترك التفكير الذى فكرت ، وإلا لكان أمراً سلبياً لا يؤدى إلى الغاية ، ولكنه وجهه توجيها إيجابيا إلى دعاء فيه إيحاء ، ومن ثم أمن فنام .

بسم الله الرحمن الرحيم

المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ/ محمد محمد المدنى

١- ولد رحمة الله عليه بمركز المحمودية بحيرة فى ٢٨ من سبتمبر عام ١٩٠٧.

٢- عرف بالنبوغ والتقدم المتواصل فكان سابقاً لجميع زملائه - فلقد أتم حفظ القرآن الكريم قبل أن تبلغ سنه الثانية عشر ولما أحس فى نفسه بقدرة علمية - وهبها الله له تمكنه من سبق زملائه، ترك الانتظام فى الصفوف الدراسية وحصل على الشهادة الثانوية فى إبريل ١٩٢٧- وعلى هذا النحو أيضاً تقدم للحصول على الشهادة العالمية التى حصل عليها بتفوق فى أكتوبر ١٩٢٧ ماكثاً بالجامعة أقل من سنة دراسية وهو ما لم يتحقق لغيره.

٣- تخرج من الجامعة الأزهرية (جامعة الأزهر حالياً) فى سن العشرين من عمره وهو ما لم يتحقق لغيره.

٤- حصل على العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) من قسم التخصص بالأزهر فى علوم البلاغة والأدب سنة ١٩٣٠.

٥- عين مدرساً بمعهد الإسكندرية وترقى إلى كثير من مناصب الأزهر العلمية والإدارية.

٦- أثبتت له مجلة الرسالة فى الأعداد الصادرة فى الثلاثينات والأربعينات مقالات عديدة مسجلاً بذلك صفحات مجيدة فى تاريخ إصلاح الأزهر والجهاد فى سبيله

وذلك علي أثر انتقاله من معهد الإسكندرية إلى معهد القاهرة - عرفها الناس وعرفوا بها الشيخ المدنى فى العالم الإسلامى شاباً فى سنه شيخاً فى علمه.

٧- تقدم بإنتاجه العلمى والفكرى للإنضمام إلى هيئة جماعة كبار العلماء - وقبل هذا الإنتاج ووفق على انضمامه للجماعة.. وقد كان قانون الجماعة يشترط ٤٠ سنة حداً أدنى لسن العضو ، وقد تأجل انضمامه لحين بلوغ السن القانونية، وقد أغلقت الجماعة قبل بلاغه السن القانونية.

٨- كان رحمه الله أول عالم أزهرى يشغل وظيفة مدير مكتب شيخ الجامع الأزهر فى عهد المغفور له فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر.

وكان متحدثاً باسم فضيلته فى المحافل الدولية والمحلية، وذلك لما كان يتمتع به من دماثة فى الخلق ودقة فى التعبير وعلم غزير ولباقة غير معهودة وحسن تصرف وسرعة بديهة وقدرة على الإقناع فى يسر وسماحة الدين الإسلامى .

٩- عين أستاذاً للشريعة الإسلامية فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ورئيساً لقسم العلوم الإسلامية بها عام ١٩٥٦.

١٠- فى مارس عام ١٩٥٩ عين عميداً لكلية الشريعة بجامعة الأزهر.

١١- أول من أدخل الدراسات القانونية فى كلية الشريعة بجامعة الأزهر على نحو يخدم الفقه الإسلامى ويعين على المقارنة بينه وبين غيره ويبرز مزاياه.

١٢-- أول من أدخل دراسة فقه الشيعة فى كلية الشريعة مستوفياً بذلك أركان المقارنة فى الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية، وبذلك فتح للناظر فى للشريعة الإسلامية آفاقاً جديدة أعانته على ما هو بصدده وجعلته ملماً بما يدور حول التفكير الغربى من تيارات ملائمة أو معارضة، وبذلك عرف رجال الأزهر الشريعة أسلوباً جديداً استعانوا بمعرفته على عرض ما عندهم عرضاً جديداً وتنظيمه تنظيماً يفيد فى تقريب الانتفاع به.

١٣- له بحوث وكتابات علمية فى الصحف والمجلات وقام على رئاسة تحرير مجلة علمية كبيرة هى مجلة «رسالة الإسلام» التى أصدرتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة، وقد ضمت هذه المجلة بحوث ودراسات صفوة من رجال الفكر والدين الإسلامى فى ذلك الوقت كالشيخ عبد المجيد سليم والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرزاق والشيخ محمد عبدالله دراز والشيخ شلتوت.

١٤- له وقفات جريئة فى تاريخ الإصلاح فى الأزهر والجهاد فى سبيله أشهرها موقفه تجاه قانون تطوير الأزهر فى ١٩٦١ والتعديلات التى أدخلت على مناهج الدراسة بكلية الشريعة عام ١٩٦٣ ولم يقبلها وكانت سبباً فى «عزله» من عمادة كلية الشريعة بجامعة الأزهر.

١٥- كان رحمة الله عليه من كبار المتحدثين فى الإذاعة والتليفزيون ، وكان من أوائل المتحدثين فى إذاعة جمهورية مصر العربية، وأثبت له كتاب أحاديث الصباح فى المذياع بعضاً من إنتاجه المشترك مع المغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت وأحاديثه الكثيرة التى ضمتها مكتبة الإذاعة سواءاً فى الفتاوى أو تفسير القرآن الكريم وسلسلة أحاديث سيادته بعنوان صفحات مشرقه من تاريخ المرأة المسلمة وسلسلة تحديد المفاهيم وغيرها مما لا غنى للدارس عنها.

١٦- أثبتت له المجلة الإسلامية «نور الإسلام» والمجلة الإسلامية «الفتح» ومجلة «الرسالة» مقالات إسلامية عديدة فى الثلاثينات والأربعينات مع الرواد الأوائل من الكتاب الإسلاميين اتسمت بالعمق وقوة الإيمان والإخلاص المجرد والعلم الغزير والوعى الكامل بالقضايا التى كان يعانى منها العالم الإسلامى فى ذلك الوقت.

١٧- أول برنامج دينى ظهر فى التليفزيون العربى هو برنامج «نور على نور» وكان الشيخ المدنى أول المتحدثين فى الحلقة الأولى مع الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر والدكتور محمد عبدالله ماضى وكيل الجامع الأزهر عليهم جميعاً رحمة الله.. وظل الشيخ المدنى شبلاً من أشبال هذا البرنامج وغيره من البرامج الدينية بالتليفزيون حتى لقى ربه راضياً مرضياً.

١٨- له بحوث إسلامية كثيرة ضمت فكراً إسلامياً حديثاً مع المحافظة على أصول الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريعة أثبت منها أن الإسلام دين كل العصور ، وقد صدرت معظم هذه البحوث بالمجلات الإسلامية الكبرى فى مصر والعالم الإسلامى أهمها مجلة الأزهر التى تصدر عن الأزهر الشريف ومجلة منبر الإسلام التى تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٩- كان رحمة الله عليه رئيساً للجنة العامة للقرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، والتى أصدرت فى فترة رئاسته لها المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (بالكامل) وثمانية المجلدات الأولى من المنتخب فى السنة النبوية المطهرة.

٢٠- حصل على وسام الدولة عام ١٩٨١ .

٢١- حصل على وسام الدولة عام ١٩٩١ .

أشهر مؤلفاته

١- المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء.
٢- وسطية الإسلام.
٣- سورة الأنعام والأهداف الأولى للقرآن.
٤- التعريف بسورة آل عمران.
٥- القصص الهادف كما نراه فى سورة الكهف.
٦- خصائص القرآن الكريم.
٧- مناهج التفكير فى الشريعة الإسلامية.
٨- رأى جديد فى تعدد الزوجات.
٩- فقه عمر بن الخطاب (تحت الطبع).
١٠- السلطة التشريعية فى الإسلام.
١١- الزواج والطلاق فى الإسلام (تحت الطبع).
١٢- الجوانب التوجيهيه للعقائد والعبادات فى الإسلام.
١٣- عدالة الإسلام (تحت الطبع).
١٤- دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى.
١٥- محاضرات فى التعريف بالقرآن الكريم.
١٦ - مختارات من القرآن والسنة .
١٧ - من أسرار عظمة القرآن .

رقم الإيداع

٢٠٠٤ / ٩٩٠٩

نور للطباعة والإعلان ت: ٣٠٢٢٩٠٣
مطابـع فـاين لايـن ت: ٧٠٠٧٠٨٢